TALES OF THE PAST

فريق متميزون

E-BOOK

يارا إبراهيم

حكايات الأمس

التاريخ لا يقول وداعًا

KOTOPIA PUBLISHING HOUSE

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

حكايات الأمس

التاريـخ لا يقول وداعًا..

الكاتبة: يارا إبراهيم.

إهداء..

إهداء

إلى صاحبة الرأس الصلب والوعي الكبير والثقافة الأوسع من حدود زمانها ومكانها..

إلى من استند إليها عودي ونمت من جذورها زهوري..

إلى التي أحبت كل ما خطه قلمي حتى قبل أن تقرأه..

إلى أمي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لطالما شغلتني الحكاية.. الحكاية وراء كل شيء، الحكاية التي تسكن كل إنسان منا.. تلك التي تدفع أحدهم ليكون طيبَ الرواية أو شريرها. الحكاية التي حين يرويها أحدنا للآخر يكون قد فتح له بابًا على قلبه وروحه.

في ذلك الكون دارت حكايات لا تُحصى.. ولكن بالطبع تُروى.. نرويها لنرى انعكاس صورنا في حيواتٍ أخرى، ونُفسر أيامنا ونستوعب غرابتها، فما حياتنا إلا نسخة ملونة من أحداث الماضي الرمادي البعيد.

في اللحظة التي أكتب فيها ذلك الكتاب وتقرؤه أنت الآن.. أفكر في أقصر الطرق التي قد تجعلك تُحب كتابي هذا، تحتضنه قبل نومك حتى يختطف التعب يقظتك.. أو تتخذه رفيقًا في طريق سفرك، أو تُهديه صديقًا تحب أن ترى البسمة على وجهه!

ولم أجد سوى أن أحبك أنا أولًا حتى أحكي لك أكثر الحكايات التي أدهشتني، وجَلت الغُبار عن روحي، وجعلتني أتنفس وأفكر وأتعلم، وأن أحيكها في ثوبٍ ناعم لا يثقل عليك فتشعر بالحاجة للمزيد دون اكتفاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سيدة ساحل الذهب

عروس النيل... فتحية نكروما

هل أحببتَ يومًا قصص الأميرات الخيالية؟ الفتاة العادية التي تتحول لملكة... لمَ لا أحكي لك إحداهن؟ ولكن كما حدثت في عالمنا الحقيقي.

كانت فتاة لا يُطلق عليها في مجتمعها بيضاء.. بسيطة في جمالها وحياتها.. أحلامها تُلائم فتاةً مصريةً يتيمةَ الأب تعمل لتُساعد أمها وأسرتها.. لم يَرُق لها التدريس فعملت بأحد البنوك.. عمل عادي وأيام عادية إلى أن التقت به، رجل ذو ملامح إفريقية، لديه ابتسامة تُضيء سُمرته بوهج وجاذبية...

لم يكن التفاهم سلسًا بينهما، فهو يتحدث الإنجليزية وهي تتحدث الفرنسية بطلاقة.. واللغة الأم لكل منهما طلاسم بالنسبة للآخر.. ولكن سرعان ما تبادلا الإعجاب قبل الكلمات.

هكذا تُروى قصة لقاء فتحية رزق وكوامي نكروما.. نكروما الزعيم الإفريقي وأول رؤساء غانا.. لم تعرف فتحية حينها أن ذلك الأسمر الغريب هو الرجل المتصدر للمشهد الثوري في وطنه، وهو من أشعلت خطاباته حماس الشعب فخرج يُطالب بالاستقلال والإفلات من القبضة البريطانية، وتمت مطاردته وسجنه فعدَّه شعبه بطلًا وقائدًا في طريق تحرير غانا.

وفي عام ١٩٥٧تحقق حلمه، عُزفت الأغاني الإفريقية الوطنية في الشوارع بحُرية، وانتصر ساحل الذهب وكانت تلك هي الشرارة الأولى التي أشعلت رغبة التحرر في بقية البلدان الإفريقية.

وأصبح كوامي الأب الروحي لغانا المحررة.. ولكن ها هو سقط في شباك حب فتاةٍ مجهولة تصغُره بما يقرب من عشرين عامًا.. مصرية.. بيضاء، وتلك الأخيرة هي أكبر حاجز. رغم أن الديانة كانت تجمعها فكلاهما قبطي إلّا أنّ اختلاف الفكر والحياة والتقاليد كان شاسعًا، ولكن كوامي نكروما كان مُعتادًا على الحواجز والطُرق الوعرة. طلب نكروما من فتحية الزواج وعارضت والدتها بشدة.. كيف تترك ابنتها لتسافر بعيدًا لبلادٍ ربما هي أقل من مصر حضارة في ذلك الوقت.. بلد لا تعرف شيئًا عنها لا اللغة ولا العادات، كيف تقبل أن تنقطع عن ابنتها وتُلقي بها إلى عالمٍ مجهول؟!

لجأ كوامي نكروما لحليفه الرئيس المصري جمال عبد الناصر الذي تدخل لإقناع والدة فتحية وطمأنها. إنه نكروما الذي سيكون بالطبع أول رئيس لغانا المحررة. «لا تقلقي في اليوم الذي ستسافر فيه ابنتك ستُفتح سفارة مصرية هناك، وسيكون من السهل أن تطمئني على ابنتك، تأتي إليكِ وتذهبين إليها».

وبالفعل تمت الزيجة في عام ١٩٥٨، وبدأت رحلة فتحية في ساحل الذهب.. ربما كانت تحمل معها أحلامًا وردية عن زفاف السيدة الأولى في غانا.. وكأنها لم تدرك أن الاتجاه الشيوعي الذي تبناه كوامي نكروما وفرضه في غانا سيُحتم عليها ألا تتباهى بأزياءٍ أوربية أو مظاهر صاخبة للترف!

ذهبت فتحية مع نكروما بالبساطة التي طلبها منها، وتزوجته زواجًا مدنيًا دون مراسم في الكنيسة كما يؤمن أيضًا.

استقبل الشعب الزوجين بحفاوة.. فلقد أتى لهم نكروما بعروس النيل كما أطلقوا عليها، ولكن لم يكف الناس عن التساؤل لِمَ؟

لمَ مصرية؟ لمَ فتحية؟!

أحبها البعض ورفضها الكثير، وكان عليها العمل لكسب محبة أُناس لا تعرف عنهم شيئًا ولا تعرف سبيلًا لإرضائهم. وماذا أيضًا عن محبة زوجها الذي أصبح أول رئيسٍ لجمهورية غانا المحررة في عام ١٩٦٠، وأصبح من واجبها أنَ ترافقه في زياراته، وأن تتعلم كيف تكون السيدة الأولى! كيف تحافظ على حياة نكروما الذي رُزقت منه بثلاثة أطفال.. كيف تجعل بيته هادئًا مستقرًا على عكس حياته في عالم السياسة.

فتحية كانت بالنسبة لكوامي محدودة الخبرة قليلة التجربة، لقد غادرت مصر لأول مرة معه، أما هو فتعلم في أمريكا وبدأ حياته السياسية هناك، ثم انتقل إلى لندن وعاد لوطنه مُحملًا بأفكار التحرر ووحدة القارة الإفريقية. فكّر لِمَ يبقى ساحل الذهب تحت إمرة المستعمر؟! البرتغاليون، الهولنديون، الإنجليز.. دائمًا هناك من يطمع ويستعبد ويسطو على كنوز ساحل الذهب... كان تحرير غانا بالنسبة له فقط هو بداية الحلم. حاولت فتحية اللحاق بركبه، حاولت أن تُشبهه وتلائمه، وربما أرادت التمسك بلقب السيدة الأولى، ربما وجود زيجة سابقة فاشلة لنكروما قد أسفر عنها ابن جعلتها أكثر حذرًا كي لا تتكرر التجربة، ربما أحبته بحق.. ربما كأيةِ زوجة حاولت النجاح.

تعلمت الإنجليزية في شهورٍ قليلة، حاولت الاندماج مع اللون السائد، نشطت في العمل الخيري وفي تقديم المساعدات للمرضى والفقراء، حاولت أن تكون سيدة أولى.

سنة ١٩٦٠انتُخب كوامي نكروما كأول رئيس للجمهورية، وبعد ذلك العام بقليل تحولت صورة نكروما من البطل القائد إلى

الديكتاتور المغضوب عليه!

اعتادت فتحية ألا تفزع وتُطمئن أطفالها حين يعود أبوهم ملطخًا بالدماء ناجيًا من إحدى محاولات الاغتيال العديدة التي تعرض لها.

حزب مؤتمر الشعب (الحزب الحاكم) الذي يمثله نكروما أصبح هو الحزب الأوحد. كُممت أفواه المعارضة.. رأى نكروما أن الغرب يتربص بغانا وعليه إقصاؤه وإقصاء كل من يفتح له بابًا، فرأى أن المُعارضة ليست وطنية وأنّ عليه الإمساك بزمام جميع الأمور.

اشتدت الأزمة الاقتصادية على شعب ساحل الذهب، ورأى أن كوامي نكروما هو المسؤول. لم تُشر الأصابع إلى أمريكا التي خشيت من نكروما ومبادئه وأفكاره التي يُحاول بثها في كل إفريقيا، ويحاول بناء اتِّحادٍ قوي بين الدول الإفريقية؛ وقد نجح في تأسيس اتِّحاد بين غانا وغينيا ومالي، وربما البقية كانت ستأتي في الطريق. لقد كتب نكروما ستة عشر كتابًا جميعهم عن الحرية وعن الاستعمار وكيفية إنشاء دولة لا تخضع لسيطرة الغرب بأي شكل.

ولأنه ككل الزعماء يخطئون بظنهم أن السلطة الأحادية هي السبيل للاستقرار؛ تهاوى النجم الإفريقي وانهار حلمه وتاريخه.

في عام ١٩٦٦بينما كان في زيارة إلى الصين كان المشهد في بلاده صاخبًا، أُسقط حكمه بانقلابٍ عسكري، وأُحرقت صوره وهُدم تمثاله ورُددت أغاني الحرية من جديد، ولكن هذه المرة أغاني تحتفي بالتخلص منه، من الديكتاتور!

التفَّ أبناء كوامي حول أمهم التي تظاهرت بالقوة والثبات وحاولت أن تُعدهم لأكثر اللحظات شراسة... الموت.

كانت تعرف أنه لن يرحم أحدٌ أبناء الديكتاتور. أخبرتهم أنه حتى وإن أُطلقت النيران عليهم.. فلا بأس، لن يكون ذلك مؤلمًا. ساعات مرت عليها كالدهر حتى أرسل إليها جمال عبد الناصر الذي استغاثت به طائرة لتهرب بها هي وأبناؤها من لهيب الغضب.

وصلت فتحية إلى مصر، للأمان، ولكن لم يلحق بها زوجها الذي قرر ألا يستسلم، واستقر بغينيا التي يرأسها صديقه أحمد سيكوتوري وحاول جمع شتاته، ولكن بلا فائدة.

في مصر تربّى ابنيّ كواما (جمال وسيكو) وابنته سامية، ولم يجمعهم بوالدهم سوى خطابات ووعود باللقاء، وعام يذهب وعام يأتي ولا سبيل لتحقيق الوعود، حتى غادر النجم الإفريقي الحياة في رومانيا تاركًا موته لغزًا مثيرًا كحياته، فالبعض صدَّق أنه حقًّا تُوفي مريضًا بالسرطان، والبعض أرجع موته للمؤامرة ولمحاولة قتله عام ١٩٧٢، وأكد ذلك الشك رغبة الشعب في غانا في عودته بعد أن ازدادت الأحوال سوءًا من بعده.

تصالح الشعب مع بطله بعد وفاته، وتم نقل جثمانه ودُفن في أرض ساحل الذهب حيث كان ينتمي دومًا.

وفُتحت الأبواب لفتحية المحبوبة دائمًا، التي قد أسمى الشعب نوعًا من الأقمشة المطرزة بالذهب باسمها (فتية فت كواما) أي فتحية تليق بكوامي، كان ذلك ردًا منهم على كل ما حاولت تقديمه إليهم طوال فترة وجودها كسيدة أولى وإسكات أي صوتٍ يقول: «ماذا أتى بتلك المصرية البيضاء إلى بلادنا؟».

حين توفت فتحية في عام ٢٠٠٧ تم نقل جثمانها إلى ساحل الذهب لتدفن بجوار زوجها كوامي نكروما.

إنني لا أعرف إن كان الحبُ الحقيقي هو الذي جمع بين هذين الشتيتين حقًّا أم المصلحة السياسية والرغبة في التقارب بين الدولتين، ولكن بكل تأكيد كان هذا قدر الفتاة البسيطة فتحية رزق لتكون فتحية نكروما السيدة الأولى لغانا، ولتعش حكاية ما كان ليتوقعها لها أحد.

"ربما غدًا أو بعد غد

ربما بعد سنين لا تعد

ذات مساءٍ نلتقي

في طريق عابر.. من غير قصد".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فاروق جويدة

روز اليوسف

هل تحب الأفلام الكلاسيكية؟ هل تجد الكثير منها مُبالغًا فيه، وغير قابل للتصديق؟! تُرى ماذا سيكون رأيك في تلك الحكاية؟

هل تتخيل أن صاحبة واحدة من أقدم وأهم المؤسسات الصحفية في مصر، التي ساهمت في ميلاد جيل عظيم من الكتاب كانت لا تحمل أي مؤهل دراسي؟! بل إنها بالكاد كانت تقرأ وتكتب! وربما تلك هي أول المفارقات في قصة حياةٍ متخمة بالمفارقات.. قصة إن تجسدت لنا في أحد الأفلام السينمائية لن نصدقها، ولكنها قصة حقيقية حدثت لبطلة حكايتنا «روز اليوسف».

كان اسمها الحقيقي «فاطمة اليوسف»، لبنانية من أصلٍ تركي، توفيت أمها بعد ولادتها، وكان والدها تاجرًا دائم السفر والترحال، خاصة بين تركيا ولبنان، اعتاد على تركها في رعاية جيرانهم مقابل ما يرسله إليهم من مال، وبشكلٍ غامض سافر ذات مرة في تجارته ولم يَعُد، تاركًا طفلته الصغيرةً وحيدة بلا أب وأم.

استمرت العائلة في رعاية ابنة الجار الغائب، وكذلك بقيت معها مربيتها. كانت عائلة مسيحية فأسمت الصغيرة روز، وجعلوا منها ابنة لهم، فلم تعرف حقيقة من تكون! ومن أبويها!

وكلما كبرت روز كلما شعرت بالغربة وسط العائلة وبمرارة التفرقة بينها وبين بقية الأبناء، حتى صُدمت بعرض صديق العائلة المُهاجر البرازيلي باصطحابها معه وتبنيها؛ انكسر فؤادها بموافقة أسرتها التي تظنها كذلك على طلبه. أشفقت المربية

على حال الطفلة الصغيرة فاضطرت للإفصاح عن الحقيقة وأخبرتها بكل شيء.

سافرت روز مع هذا الصديق طاعةً لرغبة العائلة، ولكن حين توقفت السفينة في ميناء الإسكندرية هربت وتمردت على ذلك المصير الذي اُختير لها، ومن هنا بدأت حكايتها في مصر.

كانت فتاة صغيرة تائهة في شوارع الإسكندرية. هربت من أمواج البحر لأمواج المدينة الغريبة.. ارتمت على الأرصفة، انتقلت من طريقٍ لطريق حتى استقرت بالقاهرة، وهناك تعرّفت بإسكندر فرح صاحب الفرقة المسرحية الذي عطف عليها وجعل لها في بيته متسعًا تحيا فيه وسط أبنائه.

عملت روز بالمسرح بأيةِ وظيفةٍ شاغرة، حتى عملت ككومبارس، وكان حلمها الكبير غرفة تحمل مفتاحها في جيبها لا يُشاركها بها أحد. ثم انتقلت إلى فرقة عزيز عيد صاحب أشهر فرقة مسرحية حينذاك، فأعطاها دروسًا في اللغة العربية والفرنسية، وأصبحت مقربة إليه وترافقه كظله.

انبهرت بالمسرح والتمثيل، وتعلقت عيناها بالستار الذي يزاح عن نجومٍ يتوهجون على خشبة المسرح.. وحلمت باللحظة التي تخرج فيها هي أيضًا من وراء الستار. انتظرت الفرصة حتى أتت إليها تتمايل بغنجٍ حين كانت الفرقة تُقدم مسرحية تحتاج لدور سيدة عجوز، رفض الجميع تأدية الدور ولكن روز طلبت أن تقدمه وكانت في الرابعة عشر من عمرها، فكيف ستتمكن من الإقناع؟!

نجحت روز في أداء الدور بطريقةٍ مبهرة، وقامت ببطولة مسرحيات عديدة، وتنقلت بين الفرق ما بين الإسكندرية

والقاهرة.

أحبّت روز زميلها الممثل الشاب محمد عبد القدوس الذي لن تذكره الأجيال الجديدة إلا في أدوار الرجل العجوز، على سبيل المثال دوره في فيلم عبد الحليم حافظ وهو يغني الأغنية الأشهر (يا سيدي أمرك أمرك يا سيدي)، ولكن في حينها كان شابًا ممثلًا صاعدًا، أحب الفتاة القادمة من قصةٍ أسطورية منحتها قوةً وبريقًا.

رفضت عائلته المحافظة الزيجة، وكثرت الخلافات ورسب الحب في أول اختبارٍ وتم الانفصال سريعًا، وخرج محمد عبد القدوس من حياة روز تاركًا بذرته في أحشائها.. ولده الذي يومًا ما سيكون الاسم الأشهر بين الكُتّاب.. إحسان عبد القدوس.

تربَّى إحسان مع أسرة والده التي رأت في روز أُمًا لا تليق بتنشئته.

لم تتوقف الحياة بروز فاصطدمت في طريقها الفني بعملاق المسرح ذكي طليمات وتم الزواج بينهما، ولكن انتهت الزيجة أيضًا بالفشل.

كانت روز في قمة نجاحها وشهرتها حين انتقلت إلى فرقة يوسف وهبي، وقدمت دورَ مارجريت في رواية غادة الكاميليا. لُقبت بسارة برنارد الشرق (الممثلة الفرنسية الشهيرة حينذاك)، ولكن وقع بينها وبين يوسف وهبي خلافٌ حاد بسبب تصميمها على تمثيل دورٍ رأى يوسف بك وهبي أن هناك من هي أكثر ملائمة له وهي الوجه الجديد «أمينة رزق».

قررت روز ترك الفرقة بل واعتزال التمثيل!

في جلسة مع أصدقائها في محل الحلويات دار النقاش حول الانتقادات التي تُوجَّه إلى الممثلين وتنتقص منهم على صفحات

الجرائد؛ وكأن الحديث لامس جرحها، إنها الأم التي يتربَّى ولدها بعيدًا عن أحضانها.

وعلى سبيل الخيال طُرحت الفكرة.. لِمَ لا تكون هناك مجلة فنية يتمكن الفنان من خلالها الدفاع عن نفسه وتصدير الصورة اللائقة عنه؟

فتحمست روز للفكرة وبدأت تتساءل عن تكلفة المجلة وطريقة البدء. لم يأخذ أحد الحديث بجدية أكثر من روز نفسها، ورأى الجميع أنها مجرد فكرة طائشة ستنساها فور إنهائها لطبق الحلوى!

بدأت روز في التنفيذ وقررت أن تُسمى المجلة باسمها، وكان ذلك سببًا مبدئيًا للسخرية منها. حصلت روز على تصريحٍ بإصدار المجلة سنة ١٩٢٥، ووكلت رئاسة التحرير للصحفي الكبير محمد التابعي.

وفي أول عدد للمجلة يكتب عبد القادر المازني أول مقالٍ له فيها ويبدأ بعبارةٍ ساخرة من روز اليوسف ومن فكرة المجلة قائلًا: «اتركي المهنة لأصحابها وعودي لشارع عماد الدين»، فتنشر روز اليوسف المقال كما هو دون أي تعديلٍ أو حذف!

عاد الابن الكبير لعش أمه التي طالما جمعتهما علاقة وطيدة، فكانت دائمًا تقول: «أنا أحيا من أجل إحسان»، ويقول إحسان: «أنا أحيا من أجل أمي»، وانضم كذلك للعمل معها في مجلة روز اليوسف.

اتخذت المجلة لونًا خاصًا، مختلفًا ومنوعًا، وكانت المجلة في أول ثلاث سنوات مجلة فنية، فحققت نجاحًا مبهرًا حتى بدأت تميل للاتجاه السياسي إثر انضمام روز لحزب الوفد، فساندته

وأصبحت المجلة قلمًا ناقدًا لكل أحوال الوطن (الملك، الإنجليز، الحكومة...)، وانضم إليها أشهر الكتاب والأدباء مثل: عباس محمود العقاد، وكان من أشهر الفقرات كاريكاتير ناقد اسمه (المصري أفندي). كان يُعبِّر عن أحوال المصريين بشكلٍ ساخر.

زادت نبرة الانتقاد حتى أثارت المجلة الغضب، فتم مصادرتها عدة مرات، وفي كل مرة كانت تعود روز بشكلٍ جديد وتجمع شتات نفسها وتنتفض كعنقاءٍ لا يمكن القضاء عليها.

ساءت الأوضاع بعد أن تخلى حزب الوفد عن مساندة روز التي تخلت بدورها عن مساندته وناله قلمها الناقد.

ولخلافها مع حزب الوفد رفض الموزعون توزيع الجريدة الأكثر نجاحًا وانتشارًا حتى أنها هددت عرش الأهرام، فتكبدت روز خسائرًا كبيرةً، حتى أنها اضطُرّت لبيع سيارتها ومصوغاتها.

أصدرت روز اليوسف أيضًا مجلة صباح الخير التي كانت رمزًا للروح الصحفية الشابة، وأثمرت عن جيلٍ جديدٍ من الكتاب وراسمي الكاريكاتير.

كانت مهاجمًا شرسًا للملك، وشنَّت روز حربًا ضد القصر بعد قضية الأسلحة الفاسدة، وكانت من أكبر داعمي الثورة.

ورغم ذلك لم تكف الجريدة عن الانتقاد اللاذع والاصطدام بالنخبة الحاكمة بعد الثورة؛ فاصطدمت مع جمال عبد الناصر ولذلك تعرض ابنها إحسان عبد القدوس للسجن أكثر من مرة.

لُقبت روز اليوسف بأم الصحافة؛ فقد احتضنت جيلًا كبيرًا من الكتاب والشعراء وراسمي الكاركتير باختلاف اتجاهاتهم. وكانت

مؤسسة روز اليوسف بالنسبة إليهم هويةً وانتماءً ليس مجرد مكان للعمل.

فكانت الرواتب ضئيلة وقد تتأخر في كثيرٍ من الأحيان. وقد تلجأ روز إلى بيع شيءٍ من ممتلكاتها لكي تدفع مرتبات العاملين رغم الخسائر المتكررة بسبب مصادرة الجريدة.

كانت صرحًا عظيمًا قائمًا بأقل التكاليف ولكن بأهم العقول.

ختمت روز زيجاتها بالزوج الثالث، الذي استمر معها حتى وفاتها، وهو المهندس قاسم أمين حفيد الكاتب قاسم أمين.

روز اليوسف كانت لديها أمنية بسيطة كأمنيتها في صغرها؛ غرفة تمتلك مفتاحها في جيبها. كانت تتمنى الموت على فراشها. وذات يومٍ بينما كانت مع صديقتها في السينما فجأة انتفضت من مكانها، وخرجت من السينما إلى بيتها، وبعد ساعاتٍ قليلة فارقت الحياة وهي في السبعين من عمرها، فانتهت حياتها بمفارقة لا تقل غرابةً عن بدايتها.

«المرأة كالغصن الرطب..

تميل إلى كل جانب مع الرياح،

ولكنها لا تنكسر في العاصفة».

واتلي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جوزيت أودان.. المُحاربة

هل سمعت بمقولة: «لا تخشَ الارتباط بامرأة قوية، فقد يأتي يومٌ وتكون هي جيشك الوحيد»؟

ربما تتردد في ذهنك تلك الكلمات حين أحكي لك قصة جوزيت أودان، فإن أخذك الفضول واستخدمت محرك البحث لتعرف من هو موريس أودان، ستتمكن من رؤية صورته الأيقونة بقميصه الأبيض الصيفي وعينيه الواسعتين تنظر إلى أعلى مع ابتسامةٍ ضئيلة. ومهما بحثت لن تجد صورًا إلا لموريس أودان الشاب العشريني الوسيم عالم الرياضيات؛ وذلك لأنه غادر الحياة في ذلك العمر!

موريس المولود في تونس لعائلة فرنسية، تربَّى ليصبح ضابطًا كوالده الذي جاء إلى تونس مع الحماية الفرنسية، لكنه أتلف المسار الذي رسمه له والده، وغادر إلى الجزائر ودرس وتعلم ليصبح أستاذًا في الرياضيات.

عمل بالتدريس في الجامعة وبدأ في الإعداد لأطروحته لدراسة الدكتوراة. لكن الشاب الأوروبي عاش جزائريًّا، رفض ممارسات الاستعمار، وأيَّد حق الشعب الجزائري في الاستقلال، فانضم موريس لجمعية الشباب الشيوعي بالجزائر، وهناك التقى برفيقته جوزيت. كان لكلاهما نفس الأفكار والمبادئ، فتعاهدا على الوفاء في الحياة والموت.

سنة ١٩٥٧ إثر عدة ضربات فدائية موجعة لجيش الاستعمار؛ قرر قادته النيل ممن أسموهم الطابور الخامس.. الثائرون الأوروبيون الذين كانوا بمثابة شوكة في عين المستعمر. وفي الليل

أُقتيد موريس معصوب العينين من بيته أمام زوجته وأبنائه الثلاثة، وكان ذلك اللقاء الأخير.

بعد عدة أيام لم تستطع جوزيت اقتفاء أثر موريس وأعلنت قوات الاحتلال أن موريس قد هرب، بينما كان يتم ترحيله من مكان لآخر وهم لا يعرفون عنه أي شيء.

لم يكن من الصعب على جوزيت تخيل مصير زوجها! كان الأمل يموت يومًا بعد يوم وصارت تعرف يقينًا أنه قد قُتل.

لم يكن موريس قصة وحيدة، بل كان وجهًا لآلاف القصص المأساوية التي حدثت في الجزائر دون اعترافٍ أو تحملِ أي ذنب، لذا قررت جوزيت ألا يُغلق ملف القضية قبل الإجابة عن السؤال: «ماذا حدث لموريس أودان؟». ظلت القضية في المحكمة الفرنسية كمياهٍ راكدة، مهما ألقت بها جوزيت من حجارة، لا يتغير شيءٌ. السنوات تزحف في ثقل ولا أحد يتفوه بالحقيقة، وكل ما أرادته وأراده الملايين من ضحايا معركة تحرير الجزائر.. الحقيقة!

كم من كتبٍ كُتبت عن التعذيب الذي كان يجري لانتزاع الاعترافات، لحرق الهمم، ولقتل الكبرياء. قصص وقصص تُروى، قتل وتعذيب لأبناء الجزائر ومن دافعوا عن حقوقها.

قال الصحفي هنري علاق الذي كان آخر من رأى موريس أودان في مركز التحقيق أنّه كان في حالة دمار إثر التعذيب، ولم يقل له سوى جملة واحدة قبل أن يفترقا: «لقد كان شيئًا مروعًا».

وفي عام ٢٠٠١ صدر كتابٌ عن مذكرات السفاح جاك أوساريس أحد جنرالات الجيش الفرنسي في الجزائر معترفًا بأبشع الجرائم التي ارتكبها في الجزائر، وبالنسبة لموريس السؤال المُعلق على

مدار السنوات قال: «كما بالطبع لم يتبخر موريس أودان وإنما قُتل بعد تعذيبه»، وقال أنه قُتل بسكين رغبة منهم في بادئ الأمر أن يبدو وكأنه قُتل بيد العرب لخيانته للجزائر التي اعترفت ببطولة موريس أودان، وأسمت أحد أشهر ميادينها باسم موريس، وهو الميدان القريب من الجامعة حيث كان يُعلّم طلابه، الذي ما زال حتى الآن ساحة للثوار وأصحاب الرأي.

ولكن جوزيت لم تكتفِ ولم تستطع السكوت حتى تجد إجابة عن سؤالها. لم ينفد صبرها، ولم تترك بابًا لرئيسٍ فرنسيٍّ جديد إلا وطرقته، حتى أتى عام الانتصار في سبتمبر ٢٠١٨ حين طرق الرئيس إيمانويل ماكرون باب جوزيت وقام بزيارتها، حيث اعترف رسميًّا بأن موريس أودان قد قُتل على يد القوات الفرنسية إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر بعد اختطافه وتعذيبه. وأعلن مسؤولية فرنسا عن مقتله، واعترف بأن فرنسا ارتكبت جرائمًا مروعةً في الجزائر.

نعم، قالت جوزيت: «لا يمكنني الشعور بالسعادة بشكلٍ تام، فموريس لن يعود»، ولكن على الأقل استطاعت إظهار الحقيقة بعد أكثر من ستين عامًا من البحث، وتلك الحقيقة قد تكون بابًا لإثبات الجرم الفرنسي الأكبر في الجزائر.

على مدى ستة عقود ظلّت جوزيت تبحث عن موريس زوجها الذي لم ترَ وجهه منذ تلك الليلة القاتمة. ذهب العالِمُ ذا الخامسة والعشرين من عمره وظلّ صورة لا تشيب في عقلها.

وفي فبراير ٢٠١٩ بعد إعلان الحقيقة بشهور قليلة رحلت جوزيت أودان.. رحلت منتصرة وراضية.. ووفيّة.

«سوف تأتي أجيال من بعدي تُقاتلكم،

أما أنا فستكون حياتي أطول من حياة شانقي»

البطل الليبي عمر المختار أسد الصحراء

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حدث في قصر الأميرة عائشة فهمي

«أدهى المصائب غدر قبله ثقة..

وأقبح الظُلم صَدّ بعد إقبال».

محمود سامي البارودي

ذلك القصر القابع في حي الزمالك قد يروي لك حكايات لا تتخيل تعقيدها وتشابكها، حكاية من الشرق وحكاية من الغرب. قصر حُرِّمت على ساكنيه السعادة ودائمًا ما غادره الصدق والحب.

حكايته الأولى هي حكاية شاهدناها في الأفلام الكلاسيكية مرارًا.. حكاية المال الذي أتلف صاحبه، والسعادة التي لا تُشترى بالمال.

في عام ١٩٠٧ كُلِّف أشهر مهندسي ذلك العصر «أنطونيو لاشاك» الإيطالي الذي تحملُ أجمل مباني وقصور القاهرة والإسكندرية توقيعه حتى الآن، كبنك مصر ومبنى وزارة الخارجية ومبنى محطة الرمل في الإسكندرية وقصر الطاهرة المعروف كتحفة معمارية ببناء ذلك القصر من قِبل أحد باشوات ذلك الزمان وقد كان كبير ياوران الملك فؤاد، كامل فهمي باشا.

كان كامل فهمي باشا رجلًا ينحدر من أسرة عصامية، امتلك ثروة طائلة تركها كما ترك ذلك القصر لأبنائه، ابن وحيد وأربع فتيات، هذا الابن الثري المدلل كان واحدًا من أشهر شباب مصر آنذاك. عُرف بمغامراته وحكاياته والأموال التي يبعثرها هنا وهناك على الرغم من كونه لم يتعدَّ العشرين من العمر، حتى أنه لُقب بالبرنس.

البرنس علي فهمي، ذلك الشاب الذي يحتل دائرة الضوء، أشعل الأوساط الصحفية والاجتماعية بقصةٍ جديدة هي الأكثر جدلًا وإثارة.. قصة غرامه بمارجريت ميلر.

كانت مارجريت الحبيبة الفرنسية الغامضة ابنة سائق بسيط، وأمها عاملة منزلية، ولأسبابٍ غير معروفة قاموا بإدخالها الكنيسة للرهبنة في طفولتها، يُقال بسبب نوبات من الغضب كانت تنتابها، وسلوك غير طبيعي، حتى أنها كانت السبب في موت الأخت الصغرى لها.

تبنتها عائلة أخرى بعد ذلك، ولكن سرعان ما قذفوا بها خارج أبوابهم بعد حملها الغير شرعي وسلوكها المشين، فعاشت في الشوارع كما لاق بها كفتاة ليل.. حتى ارتقت بنفسها وتعلمت الإتيكيت وفنون الإيقاع بالرجال لتصطاد من طبقة الأثرياء حيتانًا كبيرة.

ارتبطت مارجريت بأكثر من رجلٍ ثري، وعاشت حياة لا تحكمها الأخلاق بأيةِ صورة من الصور، إلى أن طُلب منها الدخول في حياة شخصية هامة وهو الأمير إدوارد ولي عهد بريطانيا الذي كان شابًا منطويًا، ليس له في الحياة أي خبرات أو تجارب! فنشأت بينهما علاقة عاطفية كما خُطط لذلك، ولسفر الأمير في المهمات العسكرية كان يكتب مشاعره الملتهبة في خطاباتٍ لها.

مرت الأيام والتقت مارجريت بالبرنس علي فهمي أثناء زيارتها لمصر، فوقع في غرامها متناسيًا فارق العمر بينهما، الذي يصل لعشر سنوات، واختلاف دينهما وثقافتهما، ولم يدقق في تاريخها السابق، وسرعان ما تزوجها وأصبحت مدام علي فهمي أو مُنيرة كما حاول تغيير اسمها ودينها بعد الزواج.

لمعت عينا مارجريت ببريق القصر والثروة ولانت في البداية لطرق الزوج المصري فوق رأسها لتكون له كما يريد، لكن سرعان ما ضاقت بها الحياة الزوجية السوية ولم تتحمل غيرة عليّ ورغبته في تقليم أظافرها، فدبَّت بينهما الخلافات.

وفي فندق سافوي في لندن في إجازة كان من المفترض أن تجمع الزوجين في سعادة، شهد الحضور على العراك بين الزوجين، فكانت مارجريت تصيح به مهددة أنها ستكسر زجاجة النبيذ فوق رأسه، فيجيبها بأنه سيضربها ويهشم رأسها.

وفي ليلة من ليالي يوليو ١٩٢٣سُمعت طلقات النار من غرفة الزوجين، وما إن فُتحت أبواب الغرفة حتى وُجدت مارجريت وهي تصرخ في حالة هيسترية وهي تقول: «أنا قتلته، أنا قتلته...».

ليُفتح ملف قضية هزت الشرق والغرب حينذاك.

***

في لندن تمّ القبض على مارجريت ومحاكمتها في قضية واضحة الأركان.. اعتراف وشهود، القاتلة امرأة منفلتة والضحية شاب بالكاد أكمل الثالثة والعشرين، ولديه كل شيءٍ في الحياة إلا القدرة على معرفة قيمتها! نهاية محتومة لحكاية مؤسفة، ولكن ثبات مارجريت كان يُنبئ بأن هناك نارًا تسري تحت الرماد!

كان لدى مارجريت سلاحٌ تعرف قيمته جيدًا.. ألا وهو خطابات الأمير إدوارد! لم يكن من الصعب عليها ابتزازه والتهديد بفضحه والزَّج باسمه في الأحداث، فرضخ ولي العهد للتهديد ولذلك تغيّر كل شيء!

تولى القضية السير مارشال هول أشهر المحامين حينذاك، وبدأ بالترويج للقضية بسيناريو بديل، فالقتيل الشاب المصري الآتي من ظلام الشرق مجنون غيور جاهل مستعبد، والأدهى من ذلك اتُهم بأنَّه كان يُرغم مارجريت البريئة على العلاقات الآثمة، وكانت هي من ترفض! يا لحظ المسكينة الذي أوقعها في قبضة رجلٍ بلا رحمة وبلا إنسانية!

الصحافة التي تم تمويلها ببزخ حولت القضية بدلًا من كونها بين مارجريت وعليّ إلى قضية بين الشرق والغرب.. بين الجهل والانفتاح، ولكن من كانت تَخفى عليه الحقيقة؟! لقد أثارت القضية سخرية الناس بفرنسا والغضب بمصر، وانتفض الشعب يدافع عن نفسه؛ رافضًا تلك الصورة التي تم الترويج لها، وللأسف دُفع بمصر في قضيةٍ لم تكن طرفًا فيها! وبعد عشرة أسابيع انتهت القضية التي كانت حديث الساعة ببراءة مارجريت! الحُكم الذي أثار الدهشة في بريطانيا ذاتها!

ثم ضربت مارجريت مثلًا أعلى في الوقاحة فعادت بعد ذلك لمصر تدَّعي حملها وتُطالب بنصيبها في الميراث والقصر! ولكن لم يُحالفها الحظ تلك المرة، وآلت الثروة والقصر لأخوات علي فهمي ومن بينهم عائشة فهمي الأخت الصغرى، التي قامت بشراء القصر من أخواتها وأصبحت هي المالك الوحيد، وهناك بدأت حكايتها.

تزوجت عائشة من الدكتور محمد سعيد، وسرعان ما انفصلت عنه، وسرعان أيضًا ما وجدت حب العمر، حيث كانت تذهب للمسرح، تشاهده بانبهار ثم تهرب فور انتهاء العرض حتى لا يتعرف إليها أحد. لم تسأم من مشاهدته، أحبته وآمنت به رغم كل الاختلافات بينهما، كان هذا الرجل هو: يوسف بك وهبي

عملاق المسرح، الذي طلب الزواج بها بعد أن كَثُرت عنهما الأحاديث.

كان المسرح هو العشق الأول ليوسف بك وهبي وفرقته فرقة رمسيس.. وحاولت عائشة التي تكبره بستة عشر عامًا أن تدخل قلبه من ذلك الباب، فدعمته بمالها لشراء ما يحتاجه المسرح؛ ملابس من باريس، ديكور حديث، كل ما لمع في خياله سقط في راحة يده إلى أن دبت الخلافات بينهما!

ذكر يوسف وهبي في مذكراته أن سبب الخلافات كان غيرتها وتحكمها وتسلطها عليه بما تدفعه من مال، وقيل أيضًا أنه بسبب فيلم (أولاد الذوات) الذي كان مقتبسًا عن قصة أخيها علي فهمي ومارجريت ميلر!

إنها قصة رجل يترك زوجته وأولاده ويقيم علاقة مع عشيقة فرنسية يكتشف بعد ذلك خيانتها له فيقوم بقتلها، فيُسجن وبعد خروجه يعود لعائلته التي يجد أنها قد نسيته. فتتزوج الأم ويتنكر له الأبناء ويقرر البطل الانتحار. كما قيل أن خيانة يوسف بك وهبي لزوجته وعلاقاته النسائية كانت سببًا في تصدع حياتهما الزوجية.

فاض بيوسف وهبي الكيل وسأم من تحكمات عائشة فترك لها القصر بعد أن قرر كتابة نهاية قصة زواجهما.

حاولت عائشة استرضاءه واستمالته بكل الطرق، ولكن رفض يوسف بك وهبي العودة إلى القصر مجددًا.

لجأت عائشة فهمي للقضاء وكونت ضده جبهة معارضة، وتراكمت الديون على مسرح رمسيس، وارتفعت موجة الغضب في وجه يوسف وهبي، فكانت سقطة مسرحه مدوية، فأعلن

إفلاسه وانهالت عليه الجرائد بالهجوم، وفُتحت الملفات القديمة من علاقات ولعب قمار وغيره وغيره ومنهم روز اليوسف وجريدتها التي تركت التمثيل لخلافها معه واتجهت للصحافة!

أغلق مسرح رمسيس وأغلق الستار على حكاية يوسف بك وهبي وأميرته صاحبة القصر، فماذا عن بقية أبطال حكايتنا؟ هل تريد أن تعرف ماذا حدث في النهاية؟!

مارجريت ميلر: عاشت في فرنسا مع ابنتها، وعملت بالتمثيل في أدوار هامشية في السينما، وظلّت تمارس موهبتها في صيد الرجال الأثرياء حتى وفاتها في الثمانين من عمرها. وفي السبعينات نُشر نعي صغير في جريدة فرنسية باسم مدام فهمي، لتُكمل سيناريو الوقاحة الاستثنائي، فقد كانت دائمًا تقدم نفسها باسمه حتى النهاية، وكتبت في مذكراتها أنها لم تشعر بالسعادة إلا مع إحساسها بحب علي فهمي لها!

أما الأمير إدوارد : تولَّى العرش وسرعان ما تنازل عنه بعد قرابة عام واحد، وذلك لرغبته في الزواج من سيدة مطلقة أمريكية تُدعى والاس سمبسون، وهو ما كان ضد التقاليد الملكية فتزوجا وتركا بريطانيا بعد أن تخلَّى إدوارد عن العرش ولُقب بالأمير العاشق.

رغم وجود إدعاءات كثيرة تهدم القصة الرومانسية مثل أن مسز سمبسون كانت عميلة ألمانية، وأنّ الأمير قد تورط معها فاضطر لترك الحكم! ولكن استمر الزوجان معًا حتى النهاية حتى وفاة الأمير بالسرطان.

أما يوسف بك وهبي فقد تزوج من سيدة عشرينية كانت أمًا لأربعة أطفال، أنهت زواجها ولعًا بسيد المسرح، عاشت معه أقبح الظروف وظلت بجواره حتى وفاته..كانت تُدعى سعيدة منصور.

أما عائشة فهمي فتزوجت للمرة الثالثة من عضو مجلس شعب وتوفيت في الستينيات، وانتزع القصر سنة ١٩٥٨واعتبر مملوكًا للدولة، وتقرر أن يخصص ليكون متحفًا لمجوهرات أسرة محمد عليّ، ثم أُلغي القرار وتم ضم القصر لهيئة الفنون والآداب، ثم في السبعينيات تم تخصيصه كمجمع للفنون. ثم يُغلق لسنواتٍ طويلة ويُعاد افتتاحه وترميمه بتكلفة ضخمة ليصبح مجمع الفنون التشكيلية في الزمالك.

تلك كانت حكاية قصر وحكاية ساكنيه، وحكاية دارت أحداثها في زمنٍ أسميناه: "الزمن الجميل"!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اللورد موين، الأمين عبد الله، وأبراهام شتيرن

ثلاثة رجال وجريمة في الحي الهادئ!

إن الشجاع هو الجبان عن الأذى
وأرى الجريء على الشرور جبانًا.

أحمد شوقي

في ظهيرة السادس من نوفمبر ١٩٤٤، تشَظّي هدوء حى الزمالك بصوت رصاصات أُطلقت على الرجل البريطاني الشهير القاطن في شارع حسن صبرى.. اللورد موين!

حين وصلت سيارة اللورد وفُتح له الباب كعادته كان القاتلان بانتظاره ليطلقا عليه الرصاص، فسقط اللورد قتيلًا ورافقه سائقه البريطاني في رحلته الأخيرة.

فرَّ القاتلان في الحال تنفيذًا لخطةٍ تدربا عليها منذ وقتٍ طويل، خطة حاكتها جماعة شتيرن الصهونية.

قبل ذلك الحادث بسنوات، عاد أبراهام شتيرن من بولندا عام ١٩٣٩، ترك مهمته على وجه السرعة عائدًا لجماعة الإرغون في فلسطين، ليحل محل رجل الجماعة الأول الذي تم القبض عليه، لمسؤوليتهم عن تفجير استديوهات الإذاعة الفلسطينية اعتراضًا على الكتاب الأبيض الذي وضع تقنينًا لأعداد المهاجرين اليهود إلى فلسطين.

ثار جنون (شتيرن) الطامع في دولة إسرائيلية من النيل للفرات، وكما كان مؤمنًا أنه لا سبيل لذلك إلا بالسلاح.

توالت العمليات الإرهابية التي تستهدف المنشآت والأشخاص، وأكمل الطريق الدموي الذي اتخذته الجماعة كواحدة من جماعات إجرامية عديدة انتشرت كالسرطان في العالم وبالأخص في فلسطين، فالطريق الذي أتى باليهود من بلادهم إلى الأرض العربية المقدسة كان طريقًا غارقًا بالدماء.

قُبيل الحرب العالمية الثانية اتفقت المصالح الصهيونية والإنجليزية على الاتحاد أمام الجبهة الألمانية. تشابكت الأيدي رغم النزاع بين الطرفين، فبريطانيا وكما رأت الجماعات الصهيونية يجب أن تُنهي حمايتها على فلسطين ويفنى وجودها كي تولد دولة إسرائيل.

لكن أمام العدو الأخطر «هتلر» قد يقبل اليهود بهدنة قصيرة وصداقة محمومة بالنوايا الخبيثة مع بريطانيا، ولذلك قَبِل أعضاء قيادة الإرغون بالهدنة مع بريطانيا ومساندتها في الحرب، وكان هذا على غير رغبة شتيرن وعلى عكس أفكاره وتصوراته، ولذلك قرر شتيرن الانفصال وإنشاء جماعة جديدة اسمها «المحاربون من أجل حرية إسرائيل» (ليحي).

كانت ضربات جماعة ليحي موجعة تتصدر الصحف، فندد المجتمع الدولي بالإرهاب الصهيوني في فلسطين، ورصدت بريطانيا مكافأة كبرى للإيقاع بشتيرن حتى قُبض عليه في إحدى البنايات التي كان مختبئًا بها، فقُتل وألقي من الطابق الرابع، وقيل أنه قُتل بينما كان يحاول الهرب.

بعد ذلك بعامين..

١٩٤٤ وصل إلياهو حكيم وإلياهو بيتسوري إلى القاهرة، وكان كلاهما لا يتجاوز العشرين من العمر، وقد كُلفا كفردين من

جماعة «ليحي» التي سُميت بشتيرن بعد مقتله بالقيام بعملية جديدة ردًا على قتل قائدهم، وللتخلص من أحد الوجوه البريطانية الغير محبوبة لأعضاء الجماعات الصهيونية المتطرفة «اللورد موين» وزير المستعمرات البريطانية في الشرق الأوسط، وأحد مؤيدي الكتاب الأبيض، وأحد الداعمين للصفوف المعارضة للحركة الصهيونية في فلسطين.. كانت ضربة مزدوجة لبريطانيا ولمصر!

كانت الخطة محكمة فانطلق الشابان هربًا متنكرين على دراجتيهما الهوائية. وكانت سكرتيرة اللورد قد أبلغت الشرطة، ولكن كان لديهما الوقت الكافي للهرب، إلا أن القدر قد أوقعهما في طريق الكونستابل عبد الله.

ذلك الرجل البسيط الذي انتدب للعمل بدلًا من زميله في حي الزمالك، والذي ساقه القدر للتواجد في موقع الحادث وسماع صوت الرصاص والاشتباه بشابين بدا عليهما الارتباك، وهربا باتجاه كوبري أبو العلا.

كان يمكنه انتظار عربة الشرطة، لكن الكونستابل عبد الله تصرف كما ينبغي له. فالكونستابل رتبة اتسم رجالها بسرعة الحركة والبديهة، ابتُدعت لإدخال رجال أمن على درجة من الوعي والتعليم. رتبة بين المجند والضابط إلا أنها تشترط إتقان القراءة والكتابة، وتغير اسمها بعد ذلك للأمين.

هرع الأمين عبد الله في الحال خلف الشابين بدراجته البخارية غير عابئ بسلاحهما وخطورتهما. أمسك بالأول فسلمه لزميله، ثم أكمل مطاردة الآخر في مشهدٍ لا يتكرر كثيرًا لرجلٍ مثل الأمين عبد الله أعظم ما يمتلكه من سلاح شجاعته وإصراره.

مشهد صوّره المخرج حسام الدين مصطفى في فيلمه جريمة في الحي الهادئ الذي أنتج في عام ١٩٦٧مستعينًا بالكونستابل نفسه في تجسيد دوره الحقيقي. برقت الصحف باسم الكونستابل عبد الله.. الرجل الذي أنقذ سمعة مصر.

كرّمه الملك وحصل على ترقية استثنائية لرتبة ملازم، بل إنّ ملكة بريطانيا طلبت حضوره لتكريمه، وأصبح رجل المهام الصعبة؛ الرجل الذي يُشرف على حماية المواكب الهامة والزعماء والضيوف الزائرين كالملك فيصل في زيارته لمصر.

بعد التحقيقات عُرفت هوية الشابين وانتمائهما لجماعة شتيرن، وأُعدما في مصر عام ١٩٤٥ وادَّعت الوجوه الصهيونية البراءة واستنكار الحادث!

لم تتوقف العمليات الإرهابية على يد جماعة شتيرن، ففي عام ١٩٤٨ نفذت عملية نسف سرايا يافا الذي كان مأوى للأطفال والأيتام، وعملية اغتيال (الكونت برنادوت) المنتمي للعائلة الملكية السويدية، والدبلوماسي الرفيع الذي كان وسيطًا في كثيرٍ من المفاوضات الدولية مثل استسلام ألمانيا في الحرب العالمية الثانية وعمليات تبادل الأسرى، فاختارته الأمم المتحدة أن يكون وسيطًا في المفاوضات بين اليهود والعرب في فلسطين بعد حرب ١٩٤٨، فقدم عدة اقتراحاتٍ منها: حق الفلسطينين في العودة لبلادهم دون قيد، وتقييد الهجرة اليهودية، وأن تكون القدس تحت السيادة العربية.. فتم اغتياله!

بعد انتهاء حرب ١٩٧٣ عادت رفات إلياهو حكيم وإلياهو بيتسوري لإسرائيل في صفقة لتبادل الأسرى، ودُفنا في جبل هرتسل في جنازة عسكرية.

أما الكونستابل عبد الله فلم تبتسم له الأقدار طويلًا فبعد ثورة يوليو تمت الإطاحة به في حركة التطهير، واتُّهم بالتعاون مع الجهات الأجنبية وترك الخدمة، ليجد نفسه بلا عمل لا يملك سوى نياشين البطولة والشجاعة!

حاول عثمان أحمد عثمان صاحب شركة المقاولين العرب تعويض الأمين عبد الله وضمه للعمل معه في أمن الشركة كما روت أخت الأمين «الملازم ابتسامات» أول ضابطة في الجيش المصري عام ١٩٤٨.

ربَّت القدر على كتف الأمين عبد الله في الخمسين من عمره بطفلتين من زوجته الثانية التي اتخذها بعد وفاة الزوجة الأولى له دون أن يُنجبا. فعاش الأمين عبد الله بعيدًا عن ذكريات الماضي حُلوه ومُره، وظلمته وضيائه. لم تتذكره أقلام الصحف ولا كاميرات التلفاز، وغادر عالمنا دون ضجيج في عام ٢٠٠٢ وقد تجاوز عقده التاسع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ملك وكوكب

«فقط أولئك الذين لا يتحركون
لا يلاحظون السلاسل التي تُقيدهم».

روزا لوكسمبرج

فبراير ١٩٣٢ أُقيم حفل في مقر الاتحاد النسائي، بسيط في أجوائه مهيب في حضوره، فاصطفت صفوة من فتيات ذلك القرن يتخللهن طه حسين، فؤاد باشا أباظة، الشاعر خليل مطران وغيرهم. من كان ليصدق أن يأتي ذلك اليوم فتحقق تلك الفتيات ما كان في ذلك الوقت قطعًا مستحيلًا؟!

في حفل تخرج الدفعة الأولى من الفتيات من جامعة الملك فؤاد الأول (جامعة القاهرة اليوم) كانت هناك لطفية النادي أول كابتن طيار مصرية، والثانية على مستوى العالم، الفتاة التي تجاوزت أحلامها حدود الزمان والعادات، تجاوزت حتى حدود الأرض.

ونعيمة الأيوبي أول محامية مصرية، وتوحيدة عبد الرحمن ثاني مصرية تحصل على الدكتوراة في الطب، التي سبقتها بالعودة من البعثة بانجلترا زميلتها هيلانة سيدراوس فأصبحت في المركز الأول، وسهير القلماوي تلميذة طه حسين وأولى متخرجات كلية الآداب، وكوكب حفني ناصف، تلك الفتاة التي تحمل إرثًا ثقيلًا من عائلة لا يمكن أن تنتمي لها وتكون فتاة عادية.

قبل ذلك اليوم بسنوات طويلة كان اسم الأخت الكبرى لكوكب مِلْء السمع والبصر.. كان وهجًا أشعل ظلام ذلك العصر، إنها ملك حفني ناصف (باحثة البادية).

لم يستطع الأب حفني ناصف أن يُحرّم على ابنتيه الشرب من النهر الذي نهل منه طوال حياته، وأن يرتضي بتعاليم المجتمع المظلمة آنذاك التي تمنع المرأة من التعليم والثقافة. إنه الرجل الذي تعلم بالأزهر الشريف وحفظ القرآن وأمعن في علومه. كان أديبًا وشاعرًا ومعلمًا ورجل قانون، وكان لا يمكنه القبول بحرمان ابنته حتى من تعلم القراءة والكتابة وهي التي ورثت منه الشغف بالأدب والعلوم.

ففي عام١٩٠٠ كانت ملك أول فتاة تحصل على الشهادة الابتدائية، ثم نالت إجازة التدريس من القسم العالي الذي أنشأته الحكومة المصرية لتخريج المعلمات.

تزوجت ملك من أحد أعيان الفيوم وانتقلت للعيش هناك، وبدأت من وسط الصحراء والطبيعة الهادئة تزهر باحثة البادية.

ذلك الاسم الذي اختارته لتنشر به مقالاتها وأشعارها في الصحف. وكانت أول من كتب عن المرأة ونادى بحقوقها مستندًا لأصول الشريعة لا للعادات والتقاليد؛ فذاع اسمها في الآفاق واحتلت مكانة محببة في الوسط الأدبي. آمنت بحق الفتاة في التعليم ونادت به على كل منبر، وأنشأت عدة جمعيات مثل: «الاتحاد النسائي التهذيبي»، كما كونت جمعية لإغاثة المنكوبين المصريين والعرب وهو أساس لما عرف فيما بعد بالهلال الأحمر، وأقامت في بيتها وعلى نفقتها الخاصة مدرسة لتعليم الفتيات مهنة التمريض، وكفلت لهذه المدرسة كل احتياجاتها.

مثلت المرأة المصرية في المؤتمر المصري الأول عام ١٩١١ لبحث وسائل الإصلاح، وقدّمت فيه المطالب التي تراها أساسًا للارتقاء بالمرأة والمجتمع. كانت ترى أن التعليم والتمسك

بالدين والقيم هو السبيل لعدم محاكاة الغرب والانقياد لدعوات التحرر والسفور.

كانت ملك في أوج نجاحها الأدبي وسعادتها بكتباتها وما تُحدثه في المجتمع من عصف فكري بينما غابت السعادة عن حياتها الخاصة، فعاشت امرأة بقلبٍ جريح. لقد انزلقت قدماها في الوحل الذي نادت بالخروج منه؛ إذ وجدت أن حرمانها من الأمومة وضعها في مهب اللوم والانتقاص! وضعت همومها على سطور كتب مقالاتها، واندكَّ قلبها لخذلانه من الزوج الذي أتت لباديته آملة في الحب والأمان.

وفي أكتوبر ١٩١٨مرضت ملك وتوفت وهي بالكاد قد تجاوزت الثلاثين من العمر!

لم يتحمل حفني ناصف صدمة رحيل كبرى أبنائه وغاليته ملك في ريعان شبابها، لم يُطفئ رثاء حافظ إبراهيم وأحمد شوقي وخليل مطران نار حزنه، وسرعان ما لحق بها في فبراير ١٩١٩.

وبينما ذبلت الزهرة الكبرى كانت كوكب برعمًا جديدًا في الرابعة عشر من عمرها، فتاة ثائرة لا يخيفها شيء، فُصلت من المدرسة السنية لإشعالها لمسيرة مؤيدة لثورة ١٩١٩، ووقفت أمام مديرة مدرستها الإنجليزية وناصبتها العداء، وبعد محاولاتٍ التحقت بمدرسة الحلمية، وتثنت الفرصة الكبرى لكوكب حين تم ترشيحها لبعثة «كتشنر» للحصول على الشهادة التوجيهية ودراسة الطب في لندن رغبة في إنبات دفعة من الطبيبات المصريات.

رغبت كوكب في التخصص بأمراض النساء والولادة، وبالتالي طالبت بنقلها إلى مدينة دبلن بأيرلندا نظرًا لتوافر كلية

متخصصة في أمراض النساء والولادة هناك، ومكثت بدبلن لمدة عام وحازت على دبلوم في هذا التخصص.

عادت كوكب إلى مصر في عام ١٩٣٢ ورافقها مثيلاتها من المصريات الحالمات باقتحام الدروب الوعرة، ولم يكن ذلك بالنسبة لكوكب سوى بداية الطريق.

تتلمذت كوكب على يد الدكتور نجيب محفوظ الشهير بنجيب باشا محفوظ، وهو أستاذ طب النساء والولادة بمدرسة الطب بالقصر العيني، ورائد علم أمراض النساء والولادة في مصر والعالم العربي والغربي، وعملت في (الاسبتاليا – مستشفى كتشنر سابقًا، شبرا العام حاليًّا)، في عدة تخصصات مثل الجراحة والباطنة، بالإضافة إلى أمراض النساء.

سافرت كوكب إلى المملكة العربية السعودية لثلاثة أعوام تلبية لطلب الملك فيصل لعلاج حريم العائلة المالكة، وعادت لتستأنف عملها ثانيًا في وقتٍ حالك، حيث كانت الحرب العالمية الثانية تدق الأبواب.

طمحت كوكب أول حكيمباشي في مستشفى كتشنر، وكان ذلك المركز حكرًا على الإنجليز أن تستبدل الوجوه الإنجليزية بأخرى مصرية مدربة من الأطباء والتمريض، فكان لكوكب الفضل في تأسيس مدرسة التمريض. لم تتوقف إنجازاتها طوال حياتها، فكانت أول امرأة تنضم لعضوية نقابة الأطباء، وأول من أنشأ دار حضانة للعاملات، وأول امرأة تتولى منصب مدير عام لمستشفى، كما أنها أول امرأة مصرية تُمنح جائزة الدولة تقديرًا لجهودها في مجال الطب من قبل الرئيس أنور السادات.

ظلت كوكب تحارب بين جبهتين؛ بيتها وأسرتها، وعملها. ذلك الكيان الذي دأبت على بنائه طوال سنوات عديدة منحها الله لها. إنها ابنة لحفني ناصف الذي ربَّى ثلاث فتيات وأربع أولاد على المساواة في طلب العلم والنجاح، وابنة لملك التي لطالما ذكرتها وأسندت لها الفضل في تعليمها والتأثير عليها، فتلك الأبيات التي ما زالت عالقة بذهن كوكب الطبيبة كانت تتردد بصوت أختها:

«أتمنى أن يتذكرني الناس كطبيبة، الطب هو من صنعني ومن علمني» هكذا قالت كوكب حفني ناصف عن نفسها، لتقضي أكثر من نصف عمرها في خدمة الطب والمرضى، إلى أن وافتها المنية في سبتمبر ١٩٩٩.

منحت كوكب الطب ما منحته ملك للأدب، وما منحه حفني ناصف للتاريخ من أوراقٍ خضراء لا تسقط أبدًا مهما آتاها من خريف.

"المعاناة لديها جانبها من الفرح

واليأس له نعومته

والموت له معنى".

نجيب محفوظ

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مدام توسو

جلست ماري في غرفةٍ مظلمة تمامًا كمصيرها المنتظر، حليقة الرأس ذليلة، تواجه عقوبة جريمة كانت تُعد في ذلك العصر هي الأفظع، ثمنها رأس تحذفه المقصلة!

ماذا فعلتِ يا ماري؟ منذ أعوامٍ قليلة كنتِ تسيرين في درب النجوم، فما الذي هوى بكِ إلى القاع؟!

حاولت التهيؤ للرحيل.. لمغادرة العالم الذي ظنت أنها استطاعت أن تخلد أبطاله بتماثيلها التي أتقنت وأبدعت في صنعها، ولكن ما أثقلها الشجاعة! للموت بالطبع رهبته، وانتظاره عذاب لا يحتمله قلب بشر!

وفي البقعة المجاورة لماري جلست جوزفين دي بوهارنيه تنتظر هي الأخرى مصيرها وفي رعبٍ أكبر؛ حيث سبقها زوجها للمقصلة.

في الساعات الأخيرة كُتب لماري رؤية النور من جديد. أفلتت رأسها من مقصلة الثورة التي أصبحت تطارد كل من يُكن ولاءً للملكية.. اتصالًا أو حتى تعاطفًا.

خرجت بفضل الطبيب «فيليب كورتيوس» لقد أعادها للعالم من جديد، لقد شاطرها فرصته في النجاة. انتشلتها يده من الظلام كما فعلت من قبل.

قبل ذلك بسنوات طويلة هاجرت ماري إلى برن في سويسرا تاركة وطنها فرنسا بعد وفاة والدها في الحرب، ذهبت الطفلة مع والدتها لبيت الطبيب اللامع فيليب كورتيوس لتعمل لديه مدبرة منزل.

انبهرت الابنة الصغيرة بهواية تملكت قلب فيليب بجانب عمله بالطب «تماثيل الشمع». كبرت ماري في بيت الطبيب الذي كانت تناديه العم فيليب، وشاركته شغفه بالنحت وشربت من علمه حتى ارتوت.

رجحت كفة النحت لدى فيليب على الطب، وغادر إلى فرنسا حيث السماء الواسعة في باريس التي يمكنه أن يسطع بها. وبالفعل سرعان ما اشتهر وأصبح مقصدًا لمشاهير الزمان والمكان من كتاب وفلاسفة وساسة. وبرعت أنامل فيليب في نمذجة وجوههم وتخليدها.

أرسل فيليب لماري وأمها للقدوم إلى باريس، وسمح لماري بالإعلان عن نفسها كفنانة أخرى بارعة في منح الحياة لكتلٍ من الشمع.

دخلت ماري قصر فرساي ورافقت ملاكه وملوك فرنسا بأكملها، وجمعتها صداقة لطيفة هدفها تعليم النحت إلى إليزابيث شقيقة لويس السادس عشر.

في صيف ١٧٨٩ لم يتبدل مصير ماري وحدها بل مصير فرنسا بأكملها وربما مصير العالم! فقد قررت جموع الشعب الخروج لإسقاط الملكية المتمثلة في لويس السادس عشر، بعد أن ضاقت بهم سبل العيش، وجاعت البطون، واشتعلت القلوب غضبًا من طبقة النبلاء والحكام الذين تملكوا كل شيءٍ ولم يتركوا للشعب سوى الفتات.

سقط سجن الباستيل في قبضة الثائرين، ذلك الرمز البغيض للظلم ولنفوذ وسلطان الملك. هناك كان يُزج بكل معارض، كل رافض، وكل من خطر في بال الحكام أنه في خانة الضد. أتت

الثورة الفرنسية لتوقظ روح التمرد في العالم، مطالبة بحقوق الشعب، حقوق الإنسان، العدالة المفقودة، الإصلاح، وسحق طبقة الفساد والفاسدين.

لكن وبعد عدة أعوام سيقت الثورة نحو نفق مظلم، ساد الخوف والتشكيك والإرهاب. أصبحت المقصلة إجابة لسؤال يُطلق في تردد: «في أي صفٍ تكون؟ مع أي جيشٍ تقف؟ لمن ولائك؟ كيف يمكنك الإثبات أنك ابنٌ للثورة؟»، ولمن لا يعرف الإجابة... «لا توجد فرصة للنجاة».

زُج بماري في السجن لتواجه حكمًا بالإعدام لصداقتها مع أسرة لويس السادس العشر، وانتشلها توسط الطبيب فيليب الذي استطاع بذكاءٍ في السنوات السابقة قلب الدفة نحو أبطال الثورة الجدد. لم يكن خروج ماري من السجن هو نهاية قصة الرعب وإنما كان هو البداية!

جلست ماري على المنضدة تحاول تجسيد وجوه أصدقاء الماضي من الأسرة الحاكمة وأمامها رأس ماري أنطوانيت وزوجها، ولكن ليس كما اعتادت أن تراها.. المرأة الجميلة الأنيقة التي كانت تتبعها صيحات الموضة.. أيقونة زمانها، ولكن هذه المرة رأسًا قد سحقته المقصلة!

طُلب من ماري نحت أقنعة جنائزية للملوك والنبلاء مستعينة برؤوسهم وأجسادهم الميتة؛ للذكرى.. للتاريخ.. للتنكيل بهم كي يُطاف بتلك التماثيل في أنحاء فرنسا في تأكيدٍ على إسقاط الملكية! فتحول الفن الذي تعلمته ماري لألمٍ.. لرعبٍ.. لشيءٍ لم يغادرها أبدًا بعد ذلك.

مات فيليب وترك أعماله بأكملها لماري التي حاولت أن تتجاوز كل ما مرت به ومرّ بها. التقت بالمهندس فرانسوا توسو فتزوجا وأنجبا ولدين، ولكن كان هواء فرنسا بالنسبة إليها مسممًا بتلك الكراهية التي أجلستها أمام رؤوس وبقايا جثثٍ لتحفر على الشمع ملامحهم المرتعبة، فقررت الرحيل لبريطانيا في عام ١٨٠٢ آخذةً في صحبتها ولدها، تاركةً الآخر في صحبة أبيه باحثةً في أرضٍ جديدة عن حظٍ جديد.

حزمت المرأة الأربعينية أمتعتها وتماثيلها وذهبت إلى لندن.. لمسارحها وعروضها، وسرعان ما أصابها الإحباط حين لم تنل الاهتمام الذي حلمت به.

أخذت ماري تماثيلها في جولة في لندن وبدأت أعمالها تجذب العقول، ولحق بها ولدها الثاني الذي اضطر إلى بيع أعمالها التي تبقت في باريس لإنفاق والده لكل ما كانت ترسله أمه لإعالته، وأصبح الولدان جزءًا من مؤسسة ماري.. حتى استطاعوا افتتاح أول متحفٍ لتماثيل الشمع في شارع بيكر.. في لندن.

حقق المتحف نجاحًا متصاعدًا إلى أن رغبت الملكة فيكتوريا في نحت تمثالٍ لها. بعد توتر العلاقات بين فرنسا وبريطانيا وإقبالهما سويًّا على دخول الحرب صارت ماري تدَّعي أنها سويسرية لا فرنسية، فقد حاولت أن تنأى بعملها عن الخلافات وخشيت أن تُساق مرة أخرى لظلام غرفة السجن.

ظلَّت ماري تلاحق رغبات المجتمع وتصنع لهم تماثيل أشهر شخصيات الساعة، فلاحق أعمالها الجماهير واصطفوا حولها في دهشة وعجب!

ألحقت ماري بمتحفها غرفة أطلقت عليها غرفة الرعب، بها تماثيل تُحاكي ما حدث إبان الثورة الفرنسية في عام الرعب، تماثيل تجسد التعذيب والقتل في فرنسا.

في عام ١٨٥٠ رحلت ماري عن عالم الأحياء بعد أن تجاوزت الثامنة والثمانين تاركة جسدها ممثلًا في تمثالٍ من الشمع مع الأسرة الكبيرة التي صنعتها على مدار عمرها الطويل. متحف مدام توسو ظل تحت رعاية أبنائها وأحفادها لسنواتٍ طويلة، وأصبح اسم مدام توسو علامة تُعرف في كل مكان، وتناثرت فروع المتحف في كل أنحاء العالم.. أمريكا، أستراليا، شنغهاي، وغيرها.

الآن ما عادت الشهرة تكتمل إلا بتمثالٍ شمعيٍّ في إحدى صالات متاحف مدام توسو. تمثال ينافس الحقيقة في دقة تفاصيلها! لقد خرجت ماري توسو من ظلمة السجن في ذلك اليوم تاركة زميلتها جوزفين دي بوهارنيه التي ستلحق بها سريعًا لتكتب حكاية في التاريخ من حكاياته التي لا تُنسى.. حكاية جوزفين ونابليون بونابرت.. ربما أرويها لك أيضًا فيما بعد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حكايات على ساحل القناة

نوفمبر ١٨٦٩، شهدت السماء ما لم ترَهُ من قبل على تراب هذه الأرض.. الأرض التي اكتست بعرق أبنائها وآثار أقدامهم العارية، الآن تزينت لتأسر ألباب الزائرين، فابتهجت كأنها لم تحزن بالأمس، وتلألأت كأن الظلام لم يعرف لياليها أبدًا! وشهد العالم الحفل الأسطوري لميلاد القناة، شريان العالم الذي أحياه وقتل وحشة التنقل فيه.

كانت مصر في أبهى طلاتها ولكن أشبه بطبق حلوى لم يتذوقه أبناؤها!

كانت فكرة ربط نيل مصر وبحريها الأحمر والمتوسط كرياحٍ موسمية تهب بين الحين والآخر، ومنذ الآف السنين استطاعَ قدماء مصر ربط البحر المتوسط والأحمر من خلال فروع النيل في عهد سنوسرت الثالث، ثم أقبلت سنوات تقرر فيها ردم القناة وسنوات أخرى بإعادة حفرها.

وتلاطمت السنوات والعصور حتى تم اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح الذي ترتب عليه تغيير اتجاه السفن الأوروبية المتجهة إلى آسيا، وتحديدًا إلى الهند، فبدلًا من عبورها من خلال البحر الأحمر واحتياجها لبلاد العرب، أصبحت تدور حول إفريقيا، وسيطرت بريطانيا على ذلك الطريق، وكذلك على الهند، وبالتالي على النقل والتجارة.

لم يكن من الممكن أن تقف فرنسا الكتلة المنافسة لبريطانيا في ذلك الوقت مكتوفة الأيدي، لذلك أصبحت فكرة وجود قناة داخل مصر تربط البحرين أمرًا حتميًّا.

وأثناء الحملة الفرنسية على مصر سخَّر نابليون بونابرت كل الجهود لدراسة مشروع القناة، لكن التقرير النهائي كان يجزم بفشل المشروع للاختلاف الكبير في منسوب المياه بين البحرين، وتم إلغاء الفكرة تمامًا.

ثم يعود الحلم الفرنسي بعد سنواتٍ طويلة في عهد محمد سعيد باشا الذي أقنعه مسيو فرديناند دي لسبس (نائب القنصل الفرنسي في مصر) والمقرب من محمد سعيد باشا، وكان واحدًا من مجموعة (سان سيمون)، تلك المجموعة التي ضمت مهندسين فرنسيين أتوا إلى مصر وأعدوا دراسات دقيقة أثبتت خطأ الدراسات السابقة في عهد الوالي محمد علي، ولكن باءت محاولاتهم بالفشل حينذاك لعدم تحمس الوالي للفكرة. ثم اجتاحت الكوليرا البلاد وأصابت بعضهم وفر الآخرون إلى فرنسا.

اقتنع محمد سعيد باشا ووافق على حق امتياز القناة وكانت مدته تسعة وتسعين عامًا للشركة الفرنسية، وتعود بعد ذلك ملكية القناة للحكومة المصرية. وبعد وفاة محمد سعيد باشا وتولِّي الخديوي إسماعيل الذي كان مقتنعًا بمشروع القناة تم الاتفاق على بنود امتياز قناة السويس.

كانت مصر ملزمة بتقديم الأراضي مجانًا، وكل ما يستخرج من الأراضي والمناجم المحيطة معفاة من الضريبة من حق الشركة الفرنسية، وإعفاء ضريبي لأيةِ معدات تأتي من الخارج وثُلثي العمالة يجب أن يكونوا مصريين، ولمصر ١٥٪ من صافي الأرباح، وعُرضت أسهم الشركة للاكتتاب، وكان لمصر ٤٤٪ من الأسهم، ورغم الاتفاقات لم تأتِ الرياح بما اشتهت السفن، وسرعان ما توقفت الأعمال بأمرٍ من السلطان العثماني بعد تدخل إنجلترا وضغطها عليه ليُصدر قرارًا بمنع المشروع.

لكن الأعمال عادت واستُكملت من جديد بعد تدخل الإمبراطورة أوجيني إمبراطورة فرنسا زوجة نابليون الثالث (وهي المعروفة بذكائها وجمالها وتأثيرها على القرار الفرنسي)، وخاصة بعد محاولاتها لإصلاح العلاقات بين فرنسا وإنجلترا، وكانت أوجيني فتاة إسبانية من عامة الشعب درست في فرنسا، كانت جميلة بالغة الذكاء والثقافة، تعرّف بها نابليون الثالث وأحبها وتزوجها، ونابليون الثالث هو ابن الأخ لنابليون بونابرت.

تعهدت الشركة الفرنسية بتوفير آلات حديثة وظروف ملائمة ورعاية صحية للعمال، لكن ما حدث كان عكس ذلك.

اللافتات التي عُلقت في أنحاء البلاد تحث على العمل في حفر القناة بأجرٍ جيد وظروف رغدة من مسكن مناسب ورعاية صحية مع وعدٍ بألا تُمس كرامة العمال بضربهم من أي يدٍ أيًا كانت سلطتها لم يُوفَّ بما فيها! فالعمال تم اقتيادهم من بيوتهم بنظام السخرة والعمل القسري، وعملوا في ظروفٍ قاسية بأجرٍ زهيد جدًّا، ومن دون رعاية صحية! كانوا يسيرون لمسافاتٍ طويلة في حالةٍ من الجوع ونقص المياه. ولذلك آلاف العمال ماتوا جوعًا ومرضًا!

طلب الخديوي إسماعيل من نابوليون الثالث التدخل لتقليل عدد العمال المصريين، وقال جملة شهيرة: "أريد القناة لمصر، لا مصر للقناة"، لكن نابوليون فرض غرامة على مصر في حالة عدم الالتزام.

ومع انتهاء الحفر الذي استغرق عشر سنوات من عمر مصر وجهد المصريين كانت القناة قد تكلفت حوالي ٣٦٠ مليون فرنك، وقامت بسواعد مليون عامل، مات منهم ١٢٥ ألف.

وجرت المياه في القناة بفضل تعب وكد العمال المصريين الذين كتب المؤرخون عن صبرهم وجلدهم، ورسمتهم أنامل الفنانين الذين شهدوا الحدث، ثم بدأ التحضير لحفل افتتاح القناة سنة ١٨٦٩، حيث دعا الخديوي إسماعيل أباطرة العالم لحفل الافتتاح الذي قد وصفه الحضور أنه حفل أسطوري.

مُدت الطرق ورُصفت، وتم إنشاء كوبري قصر النيل، قصر القبة، وعدة منشآت أخرى. خُصصت سفن لنقل الحضور من الإسكندرية لبورسعيد، وأُضيئت بورسعيد بالمصابيح وتزينت بالأعلام. تم اختيار العساكر بعناية وصُمم زي خاص من أجلهم. أُرسل إلى خمسمِئة طباخ من أوروبا، وأعدت أشهى أنواع الطعام، وتمَّ اختيار مجموعة تمثل كل الأطياف من كل المحافظات كلٌّ بزيه، واصطفوا مع العساكر لاستقبال الضيوف. كان عدد الحضور قرابة الستة آلاف، منهم إمبراطور النمسا، ملك المجر، أمير هولندا وأهمهم كانت الإمبراطورة أوجيني. كان استقبالها مهيبًا، فقد حضرت إلى مصر قبل الحفل بثلاثة أسابيع. استقبلها الخديوي على رصيف الميناء الذي سُمي باسمها بعساكر على الصفين، وعزف السلام الوطني الفرنسي. بنى الخديوي قصرًا في جزيرة الزمالك على طراز القصور الأوروبية لإقامتها، وبنى حديقة الجبالية وكذلك دار الأوبرا الخديوية.

تنقلت في مركب رمسيس بين أجمل مدن مصر ومزارتها، فقامت بزيارة إسنا، قرية دندرة، معبد حتحور، وطار عقلها بجمال الآثار المصرية، حتى أنها تعلقت بقلادة أثرية من مجموعة إياح حتب طلبت اقتنائها، ولكن رفض طلبها أوجست ماريت!

فرانسوا أوجست فرديناند مارييت.. الرجل الفرنسي المسؤول عن هيئة الآثار حينذاك، والذي رفض ما قد تمنحه له الإمبراطورة من ألقاب في المقابل، كما رفض بعد ذلك أيضًا بقاء مجموعة من الآثار المصرية المعروضة في اللوفر وأصر على عودتها. أوجست مارييت الرجل الفرنسي موظف اللوفر الذي قبع يدرس اللغة الهيروغلفية، وطرق كل الأبواب كي يستطيع المجيء إلى مصر، فلم تعد تشبعه الكتب أو المجموعة المحدودة من الآثار المصرية في اللوفر. حالفه الحظ فتحققت أمنيته بالمجيء، وحالفه النصر في اكتشاف العديد من القطع الأثرية الهامة بفضل علمه وجهده. أحب آثار مصر واندهش لتجاهل البلاد لكنوزها وتركها تفر هنا وهناك حتى أنه قال: «متى يحب المصريون آثارهم؟».

ما كان الرجل الذي يحلم ببناء متحفٍ مصريّ قادر على موافقة الإمبراطورة والرضوخ لمطلبها، ما كان يمكنه المجاملة بكنوز مصر!

ولكن لم تعد أوجيني خاوية الوفاض إلى فرنسا، فقد أهداها الخديوي غرفة نومٍ من الذهب في مقدمتها ياقوتة حمراء نُقش عليها بالفرنسي (على الأقل عيني ستظل معجبة بكِ إلى الأبد).

ولكن وبعد أشهر قليلة من عودتها لم يعد لأي من ذلك قيمة، فودعت السعادة والترف في حياتها، فقد قامت الحرب بين روسيا وفرنسا وهُزم نابليون الثالث وهربت أوجيني التي انتُزع منها كل شيء لبريطانيا. ثم تُوفي ابنها في إحدى المعارك فانطفأت شمسها وتلونت حياتها بألوانٍ قاتمة.

وفي نهاية حكم إسماعيل تراكمت الديون واضطر لبيع الأسهم المصرية في القناة وسيطرت عليها فرنسا بشكلٍ تام، وتشارك مع أوجيني المصير المحزن حيث أُزيح من الحكم ونُفي بعيدًا عن مصر وعاش في إيطاليا حتى وفاته.

وفي عام ١٩٠٥ بعد وفاة إسماعيل أتت أوجيني إلى مصر، أتت كامرأة عادية لا إمبراطورة كانت مِلْء السمع والبصر، وزارت أرامل الخديوي، وذهبت إلى بورسعيد مرة أخرى بغير ذات الوجه والحال. وفي رحلتها الأخيرة لبلدها الأم أسبانيا بعد تجاوزها التسعين سنة ١٩٢٠ فارقت الحياة في الأرض التي ولدت بها.

ومات فرانسوا أوجست أمام تمثال خفرع الذي عشقه قبل أن يشهد تحقيق حلمه بإقامة أول متحفٍ مصري، ولكن اكتمل الحلم بعد وفاته، وما زالت مصر تذكره، وقد سُمي أحد شوارع القاهرة باسمه.. شارع ميريت كما حُرّف اسمه.

وقعت القناة ومصر في قبضة الاستعمار الإنجليزي حتى صدر قرار الرئيس جمال عبد الناصر بتأميم شركة قناة السويس وإعلانها شركة مساهمة مصرية.

ثم تغلق القناة إثر العدوان الثلاثي ويعاد فتحها مرة أخرى، ثم إغلاقها في ١٩٦٧ثم إعادة فتحها بعد صيانتها من آثار العدوان الإسرائيلي بخمس سنوات. وما زالت قصة القناة مستمرة وقصة المصريين مع قناة السويس تتكرر في كل زمانٍ ومكان.

إن العواصف والثلوج تُفني الزهور

ولكنها لا تميت بذورها

جبران خليل جبران

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(إمبراطور إثيوبيا، المسيح الأسود، أرض الميعاد.. بوب مارلي والراستا وأشياء أخرى)

من أين أبدأ لك القصة يا سيدي والأحداث مترامية الأطراف، ومتشعبة الجذور، ولا أعلم إن كنت تعرف سر ضفائر الراستا الشهيرة وحكاية الراستفاريين الذين يمثلون قرابة المليون شخص أم لا؟! على كل حالٍ لقد اتفقنا منذ البداية أنني سأحكي.

في أثيوبيا ١٩٣٠ نُصب الإمبراطور الجديد «هيلا سيلاسي» أي قوة الثالوث (لقب ما بعد التنصيب) أما الاسم فهو «راستا فاري»، وراستا لقب بمعنى دوق هيلا سيلاسي. كان يتفرد بكونه الحاكم الوحيد لدولة إفريقية لا يسيطر عليها الاستعمار حينذاك. امتلك شخصية قوية التأثير أضاف إليها قداسة دينية بادعائه الانتساب للنبي سليمان وأنه آخر نسله!

في بداية حكمه أجرى الكثير من الإصلاحات في البلاد، وكان في وطنه إمبراطورًا، وعلى بُعد أميالٍ وأميال أصبح إله!

جامايكا في قلب البحر الكاريبي وهي دولة تحت حكم التاج البريطاني. نَبُت بأرضها أتباع تتعلق قلوبهم بإمبراطور إثيوبيا. كان بالنسبة لهم نبوءة تتحق، وأمل يولد. كانت نبوءة الملهم الثوري ماركوس غارفي، الذي كان يدعو إلى وطنٍ وكيانٍ للسود. وقال أن أوروبا للرجل الأبيض وإفريقيا للرجل الأسود، وكان ينادي بعودة السود جميعًا للوطن الأم إفريقيا.

وقال ذات يومٍ لأتباعه: «ضعوا أعينكم على إفريقيا، فإذا ظهر منها ملك أسود قوي اعلموا أنه سيكون مخلصكم».

ولذلك أشارت القلوب لهيلا سيلاسي، فهو من يعود نسبه للنبي سليمان! بلده قوية محررة، إذًا ها هو المخلص المنتظر!

إنه المسيح القادم من أجل خلاصهم «المسيح الأسود»!

ولذلك نشأت الطائفة الراستفارية نسبة لراستافاري.

وفي عام ١٩٣٥ وجهت إيطاليا بصرها نحو العذراء الإفريقية فتطمع في السيطرة على إثيوبيا، وبعد افتعال أزمة على الحدود بين الصومال التي تقع تحت سيطرتها وبين إثيوبيا؛ تقرر اجتياح أثيوبيا. وقف هيلا سيلاسي محاولًا صد الهجوم لكن لم يستطع الصمود، فهرب إلى السودان، ثم إلى بريطانيا، وذهب إلى عصبة الأمم وقال خطبة عصماء مناديًا بحقوق بلاده، ولكن بلا فائدة، وأحكم الاحتلال قبضته، وارتُكب في حق الشعب جرائم وأهوال.

إلى أن اشتعلت الحرب العالمية الثانية وسقطت إيطاليا في وحل الهزيمة. فعاد هيلا سيلاسي لبلاده بمساعدة بريطانيا بعد قيام ثورة استطاع على إثرها استرداد الحكم. في ذلك الوقت كان أتباعه في جامايكا يهللون لانتصار المخلص العظيم، فازدادوا تعلقًا به وانتشرت الديانة الراستفارية أكثر فأكثر.

أما عن هيلا سيلاسي فكان يستهويه دور الزعامة فدعا لنشأة منظمة الوحدة الإفريقية، وبالفعل أصبح رئيسها وانضمت إليه الدول الإفريقية المحررة تباعًا.

كانت أسطورته في جامايكا تزداد شيوعًا، ولأول مرة واجه الإمبراطور أتباعه وجهًا لوجهٍ حين قام بزيارةٍ لجامايكا في الستينيات، وتم استقباله استقبالًا ضخمًا، وأبدى ترحيبه بمريديه، وترحيبه الأكبر بهم في إثيوبيا، فمنح أراض شاسعة

للعائدين لأثيوبيا من جامايكا وأمريكا؛ فازدادت الهجرة لأرض الميعاد.

في زيارته لجامايكا قالت امرأة أنها قد تأثرت بشدة لرؤية الجاه كما أسموه، وأنها رأت آثار المسامير في كفه وهو يشير للجماهير (إشارة لتشبيهه بالمسيح)!

تلك المرأة كانت زوجة المغني الجاميكي بوب مارلي.

بوب مارلي ابن لأم حسناء من جامايكا وأب أبيض ضابط بحرية، تخلَّى عنهما لرفض أسرته علاقته بالفتاة السمراء، فعاش الفتى بجرحٍ عميق كونه أسود في عصر التمييز المجحف بين البيض والسود، واقتنع بالراستفارية التي كان سببًا في زيادة أعداد معتنقيها.

فبعد سطوع نجمه وانتشار موسيقاه المميزة وأغانيه التي كانت تدعو للحب والسلام؛ أقبل الكثيرون على العقيدة التي تدعو الرجل للحب والسلام، وكذلك مظهره، ضفائره، تدخينه الماريجوانا- كل ذلك كان إطارًا محببًا للكثير من الشباب.

وهذه الطائفة لم تكن مرهقة في طقوس عبادتها بل لم تكن لها طقوس على الإطلاق، ليس أكثر من الحب وسماع الموسيقى، والتأمل الذي يمكنك من تدخين بعض الماريجوانا كي تصفي ذهنك لممارسته.

أما عن الشعب الإثيوبي، فلم يكن هيلا سيلاسي إلهًا بالنسبة إليهم، كان إمبراطورًا عليه أكثر مما له!

في السبعينيات.. ازداد الفقر والجوع ومات وتشرد الآلاف، في حين أن الإمبراطور كان يحتفل بعيد ميلاده ببزخ. ازداد الناس حنقًا حتى تفجر غضبهم في ثورةٍ وانقلابٍ عسكري سنة ١٩٧٤،

وألغي النظام الملكي وظل هيلا سيلاسي تحت الحراسة حتى أعلن خبر وفاته بعد أقل من عامٍ في ظروفٍ غامضة. وفي سنة ١٩٩٢ تم العثور على رفاته في حمام القصر الملكي!

خبر صدم الراستفارين وأصابهم بالشك: «كيف يموت الإله؟ وبتلك الطريقة!» ولكن وجد البعض راحته في تصديق أن من مات هو الجسد وليس الروح.

أما خبر وفاة مغني الريجي الشهير بوب مارلي في عام ١٩٨١ متأثرًا بمرض السرطان وهو لم يتجاوز السادسة والثلاثين قد تسبب في لفت الأنظار إلى الراستفارية، وأعجب الآلاف بطريقة تصفيف الشعر وأسلوب الحياة والموسيقى وتدخين الماريجوانا ورسالة السلام التي غنى لها بوب مارلي.

كان الكثيرون يفتقدون العدالة، والحب، والمساواة، لقد صدقوا الهدف ولكن.. ضلوا الطريق!

«ما هو أكثر شيء أكرهه؟

الغباء.. بالذات بأبشع صورتيه: العنصرية والخرافات».

كريستوفر هيتشنز

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إمبراطور الشاي

ستكون مصادفة لطيفة لو أنك تقرأ ذلك الجزء الآن وبجانبك فنجان من الشاي كي أحكي لك قصة مشروبك المفضل أو على وجه الدقة قصة رجلٍ جعل منه ذلك المشروب.. أسطورة.

قصة تعود أحداثها للقرن التاسع عشر في سكوتلاند، حيث كان هناك صبي صغير من أسرة بسيطة، لم يترك فرصة للعمل تضيع من بين يديه، ولم يترك مدرسته أيضًا، فإن أقبل النهار خرج للعمل وجني المال، ومع رحيله كان يذهب للمدرسة المسائية. إنه «توماس جونستون ليبتون».

كان يحلم بالسفر إلى أمريكا وهو صبي مراهق، وحين واتته الفرصة كي يعمل على سطح مركب متجه لأمريكا أحكم عليها قبضته، وهناك في أمريكا عاش خمس سنوات وهو يحاول إدخار أي شيءٍ من وظائف مختلفة، ثم عاد بعد ذلك لبلدته (جلاسكو) وعمل في محلٍ للبقالة حتى استطاع أن يفتتح أول محلٍ خاص به.. وكان محلًا صغيرًا وعادي للبقالة.

مدينة جلاسكو كانت من المدن الكبيرة المزدهرة تجاريًّا، ففكر ما الذي قد يميزه في ذلك العالم؟ كيف تبرز السمكة الصغيرة وسط كل هؤلاء الحيتان؟!

ما كان يُميز محل توماس النظافة الشديدة، ومتابعته للزبائن بنفسه، وبشاشته وشخصيته الجذابة التي عُرف بها طوال حياته، وشيئين آخرين أهم من كل ذلك؛ أنه كان دائم البحث عن طريقة لجلب منتجاته من دون وسطاء، وبالتالي يصل للمنتج بأقل سعر ومن دون سيطرة من تجارٍ آخرين، وأنه كان بارعًا في فنون التسويق.

واجهة محل توماس ليبتون كانت دائمًا تجذب المارة؛ لطالما كانت تتزين بشيءٍ لافت يتحدث عنه الناس ويشيرون إليه كقالب زبدة ضخم، ومثلث جبنة عملاق؛ فجعل الناس في حالة ترقب دائم وتعطش للجديد.

توسع ليبتون في محله وافتتح فروعًا أخرى، وعام وراء عام كانت سلسلة محلات توماس ليبتون تزداد طولًا إلى أن وصل لثلاثمئة محل في مختلف أنحاء بريطانيا جميعها محلات للبقالة. في بعض المرات حين كان يحتفل بافتتاح محل جديد كان يُعد مواكبًا تسير في الشوارع يتحدث عنها الجميع، تثير ضجة تُسمع القاصي والداني حتى أنّه ذات مرة أحضر فيلًا في حفل الافتتاح!

وفجأة تحول نشاط توماس ليبتون من البقالة للشاي!

كان الشاي في ذلك العصر الفيكتوري، وذلك نسبًا للملكة فيكتوريا التي عرف عصرها بأكثر العصور ازدهارًا مشروب الطبقة العليا، ثم بدأ يصل لعامة الناس لانخفاض سعره، ولكن مذاق الشاي لم يُرضِ ذوق توماس، ولأنه كان دائم البحث عن أصول الأشياء سافر إلى جزيرة سيلان (سيريلانكا حاليًا)، ووضع أمواله في مزرعة شاي.

وهناك جمع القدر شخصيتين من الشرق والغرب كان لا يخطر على بال بشر أن يتلاقيا، سير توماس ليبتون والزعيم المصري أحمد عرابي، الذي كان في منفاه في سيلان. فنشأت صداقة طيبة بينهما، حيث زار أحمد عرابي مزرعة السير ليبتون وتذوق الشاي الذي أصبح بعد ذلك مشروبًا مصريًّا مفضلًا.

أنشأ توماس ليبتون منظومة كاملة لتصنيع الشاي، وأدخل أنواعًا مختلفة لم تكن معروفة في ذلك الوقت. كما أنه كان أول من

صنع الشاي المعبأ في أكياس ومزودة بخيط. راودته الفكرة بسبب تاجر من تجار الشاي كان يُغلف الشاي في قطعة قماش وكان الناس يغطسونها في الماء دون علم، فجاءته الفكرة وقام بتطويرها.

توسعت امبراطورية ليبتون ووصل بتجارته لأمريكا. وبعد زيارته الأولى كعامل على ظهر سفينة أصبح رجلًا من أغنى أغنياء العالم، وأحد محبي مسابقة الإبحار باليخوت في أمريكا. كان عاشقًا لتلك المسابقة ودائم المشاركة فيها، حتى أن أحد الدورات سُميت باسمه.

كان من ألمع شخصيات عصره، فكان صديقًا لإدوارد السابع وجورج الخامس؛ ملوك بريطانيا.

توماس ليبتون صنع إمبراطورية شاسعة وكان دائم المشاركة في الأعمال الخيرية، وحين توفي عام١٩٣١بعد أن تجاوز الثمانين ذهبت معظم ثروته حسب وصيته لمدينة جلاسكو.. فلم تكن له زوجة أو أبناء.

مات توماس تاركًا كوبًا من الشاي في يد الجميع. فقد كان يرى أنه ليس من الضروري أن تكون أرستقراطيًا للاستمتاع بكوب شاي رائع، ولا يمكن أن يكون ذلك المشروب المنعش حكرًا على طبقة من الناس دون غيرها. كما ترك حُلمًا يراود الجميع أيضًا، حلم النجاح والثراء. ومن حكايته يمكننا القول: «ولمَ لا؟!»، لقد فعلها من قبل ولد فقير نجح في بناء إمبراطوريته الشاسعة بعقله ويده.

«إننا لا نتعلم السباحة

طالما أننا واقفون على الشاطئ،

نفكر في برودة الماء وعمق البحر».

د/ مصطفى محمود

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الصعود إلى الهاوية

في واحدٍ من أشهر مشاهد السينما المصرية وفي نهاية فيلم الصعود إلى الهاوية حيث دار الحوار المؤثر بين محمود ياسين ومديحة كامل الجاسوسة التي نجح ضابط المخابرات الهمام في القبض عليها، فقال لها: "دا النيل ودي الأهرامات، دي مصر يا عبلة"، فتفزع وتنهار مديحة كامل وتدرك أنها قد وصلت لنهايتها وسقطت بعد طول مراوغة. مشهد كلاسيكي علق في أذهان الكثيرين.

ولكن هذه القصة التي كتبها صالح مرسي وأخرجها كمال الشيخ قصة حقيقة لقضية شهيرة جدًّا دارت أحداثها في السبعينيات (قضية الجاسوسة هبة سليم).

هبة سليم كانت ابنة مدللة لأسرة من الطبقة المترفة، والدها كان وكيل وزارة التعليم. بعدما أنهت دراستها في المرحلة الثانوية طلبت من والدها أن تسافر لتكمل الدراسة في باريس. بالتزامن مع نكسة ٦٧ كانت باريس ساحةً لنشاط الموساد، وكان طلاب الجامعات صيدًا مستهدفًا وكنزًا يُبحث عنه بكل دأب.

تعرفت هبة بفتاةٍ يهودية في الجامعة، جذبتها لعالم كانت هبة تتوق إليه بحكم ميولها الشخصية ورغباتها (الحرية! الحُرِّية المطلقة في كل شيء، وعالم محموم بالملذات لا تقيده قيم أو مبادئ أو دين).

وتعرفت بمجموعة من الشباب اليهود الذين أدخلوا في رأسها الفارغ صورة زائفة عن إسرائيل والحياة هناك، وأنه وطن الحرية والسعادة المطلقة، وأن العرب مجرد همج غارقون في أفكارهم الرجعية التي تقيدهم وتدفعهم نحو الجهل والفقر، وأكمل لها

الصورة ضابط المخابرات الإسرائيلي الذي كان مسؤولًا عن عملية تجنديها.

تشبعت هبة بفكرة أن مصر والعرب مصيرهم الهزيمة في الحرب لا محالة، وأن إسرائيل هي القوة العظمى التي لا تهزم، وأن مساعدة هبة لإسرائيل هو بهدف تحقيق السلام وإنهاء الحرب التي يسعى لها العرب!

وبالبحث في حياة هبة سليم يُكتشف كنزًا لا يقدر بثمن؛ علاقة قديمة مع شاب ولهان غارق في غرامها حتى أذنيه، هذا الشاب هو مهندس وضابط في الجيش المصري اسمه «فاروق عبد الحميد الفقي».

وعلى الفور أُرسلت هبة لمصر لإعادة علاقتها به، ولإيقاعه في بئر الخيانة المعسول.

***

ابتلع فاروق الفقي الطعم، وأكل الثمرة المسمومة، وما زاد الطين بلة أنه كان يعمل في موقع من أهم المواقع في الجيش. وكان على علم بمواقع الصواريخ المضادة للطائرات التي تؤسسها مصر (سام ٦)، وكان مدير مكتب قائد سلاح الصاعقة، فأخذت منه وثائق وخرائط في غاية الأهمية والسرية وأرسلتها للعدو.

كانت مواقع الصواريخ تُضرب أولًا بأول فأسفرت عن خسارة مادية وبشرية فادحة، وبدماء باردة تسببت هبة سليم وشركاؤها في سفك دماء المصريين أبناء وطنها الذي تناسته.

بينما كانت مصر على أبواب حرب ٧٣ كان الموساد يطير فرحًا بإنجازات عميلته وابنته البارة هبة سليم وبالخدمات التي لا تقدر بثمن. لذلك سافرت لإسرائيل كتكريمٍ لها وقابلت جولدا

مائير وأهم قادة إسرائيل. كانت تنام في أحضان الأفاعي وخدعتها نعومة أجسادها. شعرت بالأمان المطلق لأنها في حصانة أعظم وأقوى الدول التي تعاملها معاملة الأبطال.

قامت هبة بتجنيد فاروق الفقي وزرعت في عقله نفس الأفكار، فقدم الحب والطاعة العمياء لمعبودته.. وغاصت قدماه في الوحل وتلطخت يده بدماء إخوانه.

كان فاروق الفقي بعيدًا عن الشبهات، حتى أنه قد تقرر أن يكون من المجموعة التي سيتم إعلامها بساعة الصفر لحرب السادس من أكتوبر.

ضُربت المواقع واحدًا تلو آخر وأُثيرت الشكوك في وجود عميل عسكري. وبالبحث وراء أطراف الخيوط تم اكتشاف إريال حديث للراديو فوق المبنى الذي يسكنه فاروق الفقي، وبتفتيش بيته تم اكتشاف الحبر السري وجهاز اللاسلكي ومسودات لرسائل بمعلومات خطيرة.

صدمة أدمت القلوب، حتى أن رئيس المقدم فاروق الفقي انهار وقدم استقالته، وانهار الفقي بسهولة فور القبض عليه واعترف بكل شيء، وشارك في عملية استدراج هبة سليم إلى مصر، وأعدم رميًا بالرصاص، وطلب قائده المشاركة في عملية الإعدام.

طلب الرئيس محمد أنور السادات إحضار هبة سليم إلى مصر حية أو ميتة، وتولَّى العملية ضابط المخابرات محمد رفعت جبريل الذي لقب بالثعلب، والذي شارك في عمليات أخرى لا تقل خطورة وأهمية.

كان من المستحيل اقتياد هبة سليم من باريس وهي محاطة بأصدقائها من الموساد، فالخطة البديلة كانت خداع والدها

الذي كان يعمل في طرابلس وإخباره أنّ ابنته متورطة مع جماعة فلسطينية تخطط لخطف طائرة. وكان ذلك منطقيًّا بالنسبة لوالدها الذي يظن أن قناعات ابنته الشابة ظلت كما هي يوم أن ودعها إلى باريس. فشارك معهم في استدراجها لليبيا بحجة مرضه.

تم التعاون بين السلطات الليبية والمصرية وتم الاهتمام والتخطيط لكل شيء حتى لا يكشف الموساد الخطة. تلهفت هبة سليم للقاء والدها، وبصعوبةٍ بالغة سُمح لها بالسفر من قِبل رجال الموساد، وسارت بخطى واثقة نحو الشرك، وسقطت في يد الصائد المصري. وبإجراءات مشددة تم اقتيادها من المطار وإدخالها الطيارة المصرية.

وفي حوارٍ مع اللواء محمد جبريل قال إنه بالطبع لم يُجرِ الحوار الذي ذكر في الفيلم الدرامي ولم يبدُ عليها أي ندم، ولكن تملكه الغضب بسبب عجرفتها وتهديدها لهم واستقوائها بإسرائيل فقام بصفعها.

الكاتب الصحفي أكرم السعدني كتب تحقيقًا في روز اليوسف كان يحكي فيه عن الأيام الأخيرة في حياة هبة سليم في السجن الانفرادي بشهادة العاملين والمسؤولين في السجن في ذلك الوقت، وقيل أنها كانت متماسكة وواثقة لآخر لحظة أن إسرائيل سوف تتدخل لإنقاذها وتخرجها من غيابات السجن. كانت تنكر تهمة الجاسوسية مبررة جرمها بأنها تعمل لصالح حقوق الإنسان، وأن كل الدول لديها الحق في الحصول على ما تريد من معلومات بالطريقة التي تتيسر لها. وبقاؤها في السجن، وانتظارها لحكم الإعدام، والفضيحة المدوية لها ولأسرتها التي تبرأت منها ورفضت زيارتها- لم يجعلوها تتخلى عن الاهتمام

بمظهرها، فكانت تحتفظ بأدوات التجميل والشعر المستعار الخاص بها، فتتجمل كأنها على موعدٍ للخروج في حفلٍ ساهر كما روي عنها.

بعد ٧٣ وفي أول زيارةٍ لهنري كسينجر الذي وسطته جولدا مائير للتدخل والتوسط عند الرئيس السادات لتخفيف الحكم على هبة سليم، رد عليه السادات في تعجبٍ أنه قد نُفذ فيها حكم الإعدام اليوم بالفعل!

وهكذا أصدر السادات الأمر رغم الالتماس الذي قدمته هبة للسادات للعفو عنها، وقامت قوة التنفيذ بخداعها وإخبارها أنه سيتم نقلها من سجن القناطر للقاهرة للبت في طلبها، وكان خداعها بهدف الحفاظ على السرية وعلى حالتها الصحية حتى لا يتأجل موعد تنفيذ الحكم.

بالطبع كانت هبة في أوج سعادتها وطوال الطريق لم تتوقف عن الكلام عن إسرائيل التي لا تترك أبناءها، وعن خدماتها العظيمة وعن.. وعن.. حتى وجدت نفسها متوجهة لغرفة الإعدام إلى حيث الصمت الأبدي.

نُفذ حكم الإعدام على هبة سليم الشابة التي لم تتجاوز الخامسة والعشرين، وتركت حياة محمومة بالخزي والعار.

***

«حين تخون الوطن

لن تجد ترابًا يحن عليك يوم موتك،

ستشعر بالبرد حتى وأنت ميت».

بلال فوراني

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآنسة مي

(بين الجزر والمد)

قالوا عنها فراشة الأدب، نابغة الشرق، إيزيس كوبيا (الاسم الذي نشرت به أول دواوينها الشعرية).

لكن أكثر الألقاب التصاقًا بها هو «الآنسة مي».

لقب يعكس تفردها، بسيط مثلها، فهي فعلًا الآنسة الرقيقة التي اقتحمت عالمًا يتصارع فيه فطاحل الأدباء من الرجال، فخالطتهم دون التخلي عن أنوثتها ورقتها، وتسلحت بأسلحتها التي تلائمها دون التشبه بهم، فأسرتهم بسحرها وهي من عاشت ورحلت مع قصة من أشهر قصص الحب العذري التي يرفض العقل أن يصدقها. وما زالت تجعل الناس في حيرةٍ من أمرهم.. من تكون؟!

هل هي الطفلة التي لم تكبر لتتفهم دناءة العالم وسوء طباع البشر فوقعت فريسة لشرورهم ولم تتعلم كيف تواجه قسوة الحياة إلا بالعزلة، أم هي المرأة التي لم تكبح جماح عاطفتها وفكرها، وتمتعت بمذاق كل قصص الحب التي دارت حولها وتلذذت بعذاب محبيها، وانطفأت حين خمدت نيران المتنافسين على حبها؟ هل ظلمت الكاتبة ونُصرت المرأة في مي زيادة؟! هل نُسيت مي وتبقَّى ما دار حول مي؟!

إنها ماري إلياس زيادة.. ذلك هو اسمها الحقيقي، ولدت في فلسطين لأبٍ لبناني من رجال التعليم، سافر إلى فلسطين في مهمة عمل وهناك تعرف بأم ماري الفلسطينية وتزوجها، تربت ماري كطفلة وحيدة لأسرة ميسورة الحال، فالأخ الوحيد توفي في

صغره. نشأت في عزلة أجبرت عليها في البداية من خلال المدارس الداخلية، ثم اعتادت عزلتها وأحبتها.

كانت طفلة تحب القراءة والمطالعة، فلما كبرت أصبحت ذات ثقافة واسعة. كانت تجيد لغات عدة وتتقنها، وتكتب الشعر باللغة الفرنسية. تعلمت في الجامعات المصرية وأصبحت مصرية الهوى. بدأت دخول معترك الكتابة في وقتٍ مبكر، فبدأت تكتب في جريدة المحروسة التي كانت ملكًا لوالدها، وانطلقت بسرعة السهم وأثارت الجدل في الأوساط الأدبية، وكانت مقالاتها تنشر في أهم الصحف.. لكن لماذا؟ لماذا مي تحديدًا؟!

أولًا مي زيادة حضرت لمصر في عام ١٩٠٧ تقريبًا، فكانت ابنة العصر الذي كانت تقبع فيه المرأة خلف الستار بلا تعليم وبلا عمل.

أسماء قليلة جدًّا تلك التي سبقت مي بالسطوع مثل ملك حفني ناصف (باحثة البادية). وكانت مي شديدة الانبهار بها ولها كتاب عنها، فما بالك بفتاة متحررة واسعة الثقافة تكتب عن المرأة وتعليمها! تنتقد موضوعات أدبية وأعمال لكبار الكتاب، تكتب الشعر ولديها كتب مدهشة في فكرها وأسلوبها، وقد عُرفت مي بالعاطفة المحمومة في كتاباتها وأنها كانت تحترف اختيار التعبير وتطلق أفكارها في إطار عاطفي آسر.

بدأت شهرتها الفعلية في مصر في إبريل ١٩١٣ حيث واجهت الكاتبة الواعدة الجمهور في حفلٍ لتكريم الشاعر خليل مطران، ودُعيت لإلقاء كلمة شاعر المهجر جبران خليل جبران. فأجادت الإلقاء حتى أطرى عليها الأمير محمد علي رئيس الحفل الذي

حضر بالنيابة عن أخيه الخديوي عباس حلمي الثاني، وقال: «آنسة مي إننا نهنئ أنفسنا بكِ».

فتتبعتها الأعين أينما حلت وأيما كتبت. كتبت مي في العديد من الجرائد والمجلات مثل: المقتطف، اللواء، المؤيد، الأهرام، الوطن، مجلات الهلال وغيرها.

رحبت مي بالمناقشات الأدبية مع مشاهير العصر واكتسبت صداقتهم فنشأت فكرة صالون مي.

كان صالونًا أدبيًا يقام في كل ثلاثاء يحضره أباطرة الفكر والأدب والسياسة، وجمعت أقطاب الفكر المختلف، وقبل الجميع المصالحة رغم تضاد الأفكار من أجل احترام قانون مي.

حضر في صالون مي زيادة كل من طه حسين، مصطفى صادق الرافعي، أحمد شوقي، العالم الكيميائي شبلي شميل، محمد لطفي السيد، الكاتب أنطون الجميل، وإسماعيل باشا صبري الذي كتب فيها:

روحي على بعض دور الحق هائمة

كظامئ الطير حوامًا على الماء

إن لم أمتع بمي ناظري غدًا

أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء

قال عباس محمود العقاد عن صالون مي: «لو جُمعت الأحاديث التي دارت في صالون مي، لتألفت منها مكتبة عصرية تقابل مكتبة العقد الفريد ومكتبة الأغاني في الثقافتين الأندلسية والعباسية».

استمر الصالون ما يقرب من عشرين عامًا، كانت مي تدير الحديث وتنظم السجال وتقف حائلًا بين الخلافات واحتدام

النقاش. ولكن لقد اندثر الأثر الأدبي للصالون وتبقى ما قيل في قصص الحب التي دارت في ذلك الجمع.

فقيل أن كل منهم انجذب للهالة المحيطة بمي، وهُيئ إليه أنه يحبها وأنها تبادله الحب، وتغزلوا بها شعرًا وفعلًا.. سرًا وعلانية.

وبين كل تلك الحكايات تعلق بالوجدان حكايتان؛ حكاية مي والعقاد، وحكاية مي وجبران.

رفض العقاد أن يكون أحد المتنافسين في صالون مي، لقد التاع بحبها الذي سعت للحصول عليه، ولكنه لم يكن بالرجل الذي يلقي بأبيات الوله والعشق تحت قدميّ محبوبته.. وربما هذا ما جذبها إليه!

لقد واجه الكاتب الصحفي كامل الشناوي العقاد بشكه أن رواية سارة وهي روايته الوحيدة إنما هي كتبت لمي، فأجاب العقاد متفاجئًا: «لقد حاولت جهدي أن أكتم هذه الحقيقة حتى عن أقرب الناس إليّ، وكان في عزمي أن أجهر بها يومًا بعد أن يصبح هوانا العفيف تاريخًا يجب أن يُسجل، وإنّ عندي من رسائل مي إليّ وعندها من رسائلي إليها ما يصلح كتابًا يصور علاقتي بها وهي علاقة قائمة على الحب المتبادل». ولكم استشاط العقاد غضبًا من جبران الذي كان يعرف مدى إعجاب مي به.

بدأت حكايتها مع جبران بإعجابها بكتابه الأجنحة المتكسرة، وكتبت عنه وبدأت تراسله ويراسلها في إطارٍ من المناقشات الأدبية.. ثم تطور الأمر:

«غابت الشمس وراء الأفق.. ومن خلال السحب الغريبة الأشكال والألوان حصحصت نجمة واحدة، هي الزهرة... إلهة الحب!

أترى يسكنها كأرضنا أناس يحبون ويعشقون؟!

ربما وجد فيها بنت هي مثلي.. لها جبران واحد

حلو بعيد وهو القريب القريب.

تكتب إليه الآن وقد ملأ الشفق الفضاء.. وتعلم أن الظلام يعقب الشفق.. وأن النهار يعقب الظلام.. والنهار سيتبع الليل مرات كثيرة قبل أن ترى الذي تحب.. فتتسرب إليها كل وحشة الليل.. فتلقي بالقلم وتحتمي من تلك الوحشة خلف اسم واحد هو... جبران».

من رسائل مي زيادة وجبران.. وما أجمل رسائل مي وجبران!

المميز في قصة حب مي والشاعر جبران خليل جبران أنها استمرت لعشرين عامًا دون أن يلتقيا معًا ولو لمرة واحدة!

وجبران هو الشاعر والأديب والرسام والنحات اللبناني الشهير الذي عاش حياته في أمريكا، ولم يعش في لبنان سوى سنوات قليلة. هاجرت أمه في طفولته مع إخوته لأمريكا بعد تدهور أحوالهم نتيجة إفلاس والده والظروف المادية الصعبة، وعاش ودرس ونمت مواهبه الأدبية والفنية هناك، وكانت أعماله تحتل المراتب الأولى في المبيعات بعد أعمال شكسبير، وأسس الرابطة القلمية في أمريكا مع ميخائيل نعيمة وآخرين بهدف تجديد الأدب العربي وغيره.

قصة حب مي وجبران كانت من خلال المراسلة فقط، حب وخصام وعتاب بالشعر والرسائل كأنهما صورتين في عالمٍ من الخيال. إلا أنه قيل أن كليهما قد وقع تحت سحر الفن والأدب. فلم تكن مي ملهمة جبران الوحيدة ولا المرأة التي عكف على

مراسلتها حبًا وإلا لمَ لم يحاول رؤيتها ولو لمرة واحدة والخروج من ذلك الإطار الخيالي لإطار الواقع؟!

وقد كتب جبران لمستشارته المالية ورفيقة حياته ماري هاسكل: «أنتِ أعز إنسانٍ على قلبي في هذا العالم»!

فهل أخذت مي قصتها مع جبران بشكلٍ أكثر جدية مما فعل هو، أم أنها وعت لهذه الحقيقة أيضًا؟!

ولكن بموت جبران صُدمت مي وعانت حزنًا شديدًا، مات بمرض السل في أمريكا سنة ١٩٣٢ وكان في الأربعين من عمره.

لكن كان موت جبران هو بداية خيط الأحزان، فتوفي والديها بعد ذلك، وتسرب الأحباب واحدًا بعد واحد، فتعرضت مي لأزمة نفسية صعبة، وانعزلت عن الناس، وعندما قلق عليها محبيها في القاهرة قرروا إرسالها لبيروت لأقاربها.

هؤلاء الأقارب الأعزاء طمعوا في الآنسة الرومانسية الساذجة وقرروا افتراس الصيد الذي وقع في شركهم؛ فأدخلوها مستشفى للأمراض العقلية (العصفورية) كما يُطلق عليها في لبنان، وقاموا بالحجر عليها وأصبح لديهم الحق في التصرف في جميع ممتلكاتها!

انتظرت مي التي كانت نجمة مشعة انتفاض الأصدقاء الذين كانوا يحيطون بها في وهجها ولكن للأسف نُسيت! وداخل المشفى ساءت حالتها أكثر فأكثر إلى أن اهتم بأمرها بعض الصحفيين اللبنانين وبدأوا بنشر مقالات أثارت ضجةً وغضبًا على ما حدث لمي.

فأُعيد توقيع الكشف عليها مرة أخرى ورُفع عنها الحجر وخرجت من المشفى. لكن للأسف وجدت ممتلكاتها قد نهبت

حتى رسائلها الشخصية ومكتبتها!

عادت مي بعد فترة إلى مصر مرة أخرى، لكنها لم تكن مي التي سافرت! كانت إنسانة محطمة تجرعت مرارة الخذلان من أقرب قريب، أصبحت شخصية قلقة مكتئبة تميل لمزيدٍ من العزلة، قيل إنها أصيبت بالفصام وكان ينتابها الشك في كل من حولها.

كان لديها عدد محدود جدًّا من الأصدقاء في تلك الفترة ولم يتبقَ لها سوى القليل من الممتلكات، فسكنت في شقة إيجار! وكتبت منشورًا اسمه (إرادتي)، كان أشبه بوصيتها تطلب فيه أن تترك لتموت في نفس المكان وعلى نفس السرير، ولمحت لاحتمالية قتلها بمواد مخدرة أو سامة توضع لها في الطعام! وقالت أنها تحب مصر وتحب الشرق والإنسانية أجمع. وقالت في نصٍ آخر أنها وجدت كثيرًا من أعمالها وأوراقها الشخصية قد سُرقت.

ظلّت مي تتلقى الصدمة وراء الأخرى، ولكن حاولت المقاومة بكتابة أعمالٍ جديدة لم يكتب لها الخروج للنور، مثل: يوميات في العصفورية وأعمال أخرى.

توفيت مي سنة ١٩٤٢ عن عمر يناهز ٥٥ سنة في القاهرة في شقتها وحيدة. اكتشف حارس العقار أنها لم تفتح شرفتها ولم تأخذ الجرائد من أمام الباب، وحين اقتحموا الشقة كان لديها هبوط حاد في الدورة الدموية نتيجة لتناولها الأدوية والمهدئات من دون طعام لعدة أيام، وحين انتقلت للمشفى كانت تتمنى الموت، إلى أن فارقت الحياة بالفعل بعد أيامٍ قليلة.

لم يحضر جنازة مي سوى عدد قليل جدًّا من الأصدقاء ليسوا من كواكب الأدب الذين كانوا يدورون في فلكها! كتب العقاد

رثاءً عنها وكذلك العديد من الكتاب، ولكن بماذا قد تفيد الكلمات بعد رحيل من قد يسعد لسماعها؟!

"ربما كانوا محقين حين وضعوا الحب بالكتب
ربما لم يكن ليعيش في أي مكان آخر".

وليام فوكنر

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كو كلوكس كلان

(تاريخ العنصرية الأسود)

"لا تحلموا بعالمٍ سعيد،

فخلف كل قيصر يموت قيصر جديد،

وخلف كل ثائر يموت،

أحزان بلا جدوى ودمعة سدي".

الشاعر أمل دنقل

(الكو كلوكس كلان) اسم غريب يختبئ خلفه وجه من وجوه العنصرية القبيحة التي طلّت ربما منذ أكثر من مئة وخمسين عامًا في الولايات المتحدة الأمريكية، ولربما صادفك مشهد في أحد الأفلام السينمائية التي تتناول العنصرية ضد السود، لمجموعة ترتدي ملابس بيضاء على عكس نواياهم، وقد أخفوا وجوههم بأقنعةٍ تُشبه القراطيس، يعلنون عن وجودهم بحرق الصلبان، ذلك المشهد إنما يشير لجماعة الكو كلوكس كلان.

لفهم هذا المشهد علينا إعادة شريط الحكاية إلى بدايته، إلى عام ١٨٦١(الحرب الأهلية الأمريكية).

غرق الشعب الأمريكي في حربٍ استمرت لأربع سنوات، سقط فيها من القتلى أكثر ممن سقط في الحرب العالمية الأولى والثانية لخلافٍ على مسألةٍ واحدة؛ هي قضية العبيد.

كانت الولايات الواقعة في الشمال تعتمد بشكلٍ أساسيّ على الصناعة، أما ولايات الجنوب فتعتمد على الزراعة، وبالتالي على العبيد، وعندما بدأ رجال السياسة في الشمال بتقديم دعوات

لتحرير العبيد وإلغاء الرق، بالطبع لم تقبل الولايات الجنوبية لما سيقع عليهم من ضرر، وربما كانت المصالح هي من دفعت رجال الشمال للدفاع عن القضية أيضًا وليست القيم الإنسانية.

تقدمت ولايات الجنوب التي كانت أقل عددًا من ولايات الشمال بطلب انفصال بعد فوز الرئيس أبراهام لنكولن المعروف بموقفه المعارض لاستمرار العبودية، وبالطبع قوبل الطلب بالرفض، فنفذت حلول السلم وفُتحت أبواب الحرب لتلتقي ولايات الجنوب التي أسست ما يُسمى بالكونفدرالية مع ولايات الشمال التي أسست ما يُسمى بالاتحاد، وكان على أحدهما إثبات قوته وإحكام قبضته والانتصار لقضية العبيد أو القبول بالهزيمة وما سيترتب عليها.

وفي الحرب لمع نجم جنرال جيش الكونفدرالية (الجنوب)

ناثان بيدفورد فورست، الرجل القوي صاحب المال والنفوذ ومزارع القطن وتجارة العبيد الذي تطوع للانضمام إلى صفوف الجنود بينما كان بإمكانه الابتعاد عن غبار الحرب، ولم يكن الرجل محاربًا عاديًا بل ذاع صيته في البلاد لشراسته وقوته في القتال كأنه كان يحارب من أجل معتقداته وليس من أجل مصالحه فقط!

إلا أن الحرب لم تنصفه وانتهت بفوز الاتحاد (الولايات الشمالية)، وبذلك أُعلن إلغاء الرق وتحرير العبيد.

أنهت الحرب الرق ولكن لم تُنهِ الكراهية، وتعطشت القلوب للانتقام، حتى مقتل لنكولن لم يشفِ صدورهم، إلى أن توصلت مجموعة من المحاربين لفكرة تأسيس أخوية مناهضة للسود،

وتم اختيار الجنرال بيدفورد فورست رئيسًا للجماعة التي أطلقوا عليها (كو كلوكس كلان) أي الدائرة باللغة اللاتينية.

اختارت الجماعة الزي الأبيض الذي يظهرهم في الظلام كأشباح مرعبة، وهاجموا المطالبين بحقوقهم من السود، فشهد عام ١٨٦٦ عمليات قتل وتعذيب، هجوم على المدارس والكنائس، واشتعلت الشوارع بصلبان الكلان لسنوات، حتى تم تشريع قانون بتجريم الجماعة عام ١٨٧١.

وعام ١٨٧٥ تم السيطرة على الجماعة ووقف نشاطها تمامًا

فتوقف العنف، ولكن هل تتوقف الكراهية؟!

المشهد الثاني ١٩١٥

فيلم يُعرض في صالات السينما الأمريكية تلاحقه مطالبات بالمنع تأتي بنتيجة عكسية، فتكون أفضل دعاية له ويحقق إيرادات منقطعة النظير؛ فيلم (ولادة أمة).

يُغذي الفيلم الأفكار العنصرية لدى المشاهد، ويشعل مخاوفه تجاه حرية مجتمع السود، فيظهرهم بصورة شيطانية تفتقد للقيم والمثل والقدرة على السيطرة على الأفكار والشهوات، فهُم القتلة المغتصبون إن حُطمت قيودهم، والمنتقمون من ساداتهم البيض إن تحرروا.

تلك المخاوف أحيت من جديد جماعة الكلان، وفي تلك المرة كان في مقدمتها قس يُدعى جوزيف سيمنز، أشعل مشاعر الرفض تجاه كل من هو مختلف وليس السود فحسب، فامتدت الحركة لمعاداة المهاجرين واليهود أيضًا، بل حتى إلى المسيحين الكاثوليك، فلا سيادة إلا للرجل الأبيض البروتستانت!!

زادت نبرة العنف وتوالت حوادث قتل السود وشنقهم وتعذيبهم وما زال هناك الكثير من الصور لضحايا تم إعدامهم دون محاكمة عادلة، فتدلت أجسادهم من جذوع الشجر فوق الأرض الظالمة التي يقف عليها الجناة وهم ينظرون إلى آلات التصوير بابتسامة الفخر!

وربما تتساءل: أين الشرطة؟ أين سيادة القانون؟ لمَ أُطلقت يد الإجرام في المجتمع؟!

وللإجابة عن هذه الأسئلة أن جماعة الكلان كانت قد بلغت من القوة أن أحكمت سيطرتها على كثيرٍ من رجال الحكم إما بالانتماء إليهم أو بتخويفهم؛ فأصبحت القضايا تُقيَّد ضد مجهول!

سنة ١٩٢٢ أقيل جوزيف سيمنز من رئاسة جماعة الكلان بعد أن كُشفت سرقته لأموال الجماعة، ثم بدأت فضائح قادة الكلان تنتشر من سرقات وجرائم اعتداء، فكيف لمن ينادون بأفضلية الأبيض المنزه عن الخطأ أن تصدر عنهم مثل تلك الأفعال المشينة؟!

حاولوا إخفاء الفضيحة بدفع أعدادٍ كبيرة من أفراد الجماعة للشارع في عمل مسيرات لتثبت وجودها، وكان عدد أفراد الجماعة قد تجاوز الأربعة ملايين. لكن مع بداية فترة الكساد الاقتصادي سنة ١٩٢٩الذي استمر للثلاثينات انخفضت موجة الكو كلوكس كلان، فالانهيار الاقتصادي وزيادة البطالة جعلت الناس ينشغلون بما هو أهم.

ثم تتوالى المحن حتى تدق طبول الحرب العالمية الثانية فينخفض نشاط الكلان حتى يعاد استثارته من جديد بقرار منع

التمييز العرقي في الستينيات، ومنع الفصل بين السود والبيض، فقد كان من غير المسموح للسود في ذلك الوقت دخول نفس المدارس أو المستشفيات أو المطاعم مع البيض، وحتى في وسائل المواصلات العامة كانت مقاعد البيض في المقدمة، ويمنع على السود الجلوس إذا لم يجد الأبيض مقعدًا! وربما تكون حادثة روزا باركس السيدة التي رفضت التنازل عن مقعدها لرجلٍ أبيض في الحافلة مما أدى لتوقيفها والقبض عليها هي الحادثة التي أججت مشاعر الغضب تجاه تلك القوانين العنصرية. وبقيادة مارتن لوثر كنج تم تنظيم إضراب عن ركوب المواصلات لمدة ٣٨١ يوم، وتزايدت الاعتصامات والمطالبات حتى صدر قانون تجريم التمييز العنصري، ولكن هل أنهى القانون التمييز العنصري حقًّا؟!

كان رد جماعة الكلان على ذلك القانون هو عمليات عنف وتعذيب جديدة ضد السود وضد كل من يتعاطف معهم أو يؤيدهم!

«أشجار الجنوب تحمل فاكهة غريبة / دم على الأوراق ودم في الجذور / جسد أسود يتأرجح في نسيم الجنوب / فاكهة غريبة تتدلى من أشجار الحور».

تلك كانت كلمات أغنية مؤثرة للمطربة بيلي هوليداي تصف فيها الأجساد المعلقة على الأشجار والإعدامات التي كانت تُنفذ من دون محاكمات، بل إن المحكمة اعتمدت المحاكمات الفورية، أي جلسة محاكمة من عدة دقائق تنتهي باقتياد الشخص لحبل المشنقة! ووجود زنجي في نفس البقعة التي تحدث بها الجريمة يجعله هو المتهم الأول دون مناقشة.

ذلك العنف قُوبل بعنفٍ مضاد، فظهرت جماعات سوداء ذات أفكارٍ عنصرية واتجاه غير سلمي تجاه البيض، وكانت هناك أيضًا رموز تطالب بحقوق السود بشكل سلمي، مثل: مارتن لوثر كنج، ومالكولم إكس الذي ضل طريقه في البدايه بتبنيه مبادئ جماعة إليجاه محمد الذي يشيطن البيض ويقدس السود، وحين عرف الإسلام الصحيح دعا لنبذ العنصرية بصورها، ولكن وللأسف أُغتيل ببارودٍ آثم.

في بداية السبعينيات تم إعلان تجريم المنظمة وكل من ينتمي إليها وملاحقته قضائيًّا، ولكن هل تتخيل أن في عام ١٩٩٧تم إعدام هنري هايز بالكرسي الكهربائي في جريمة قتل وشنق المواطن الأمريكي الإفريقي مايكل دونالد الذي لم يتجاوز العشرين من العمر بالاشتراك مع ثلاثة آخرين وينتمون جميعًا لكو كلوكس كلان؟!

الجريمة التي جرت أحداثها في أوائل الثمانينات، وكانت تلك هي المرة الأولى التي ينفذ فيها حكم الإعدام على رجلٍ أبيض من جماعة الكلان لقتله رجلًا أسود في القرن العشرين.

للأسف جماعة الكو كلوكس كلان ليست تاريخًا بل هي حاضر مستمر إلى الآن.

في ٢٠١٥ اقتحم شاب في العشرين من عمره كنيسة في تشارلستون في ولاية كارولينا الجنوبية وقام بقتل تسعة أشخاص. وتوالت العديد من جرائم القتل ضد السود، ومع فوز ترامب عادت الجماعة للساحة من جديد واحتفلت بتوليه الرئاسة مع مجموعة أخرى من الجماعات العنصرية مثل النازيين الجدد.

الآن وبينما أكتب عن العنصرية تتأجج شوارع أمريكا بالمظاهرات وأحداث العنف والشغب اعتراضًا على قتل المواطن جورج فلويد على يد رجل شرطة، حادث ليس الأول من نوعه، ولكن ترى هل يكون الأخير؟!

قال مارتن لوثر كنج: «أعمال الشغب هي لغة غير المسموعين».

ودائمًا ما كانت الأديان بريئة من الإرهاب وإنما هي نفوس البشر المشبعة بالعنصرية والكراهية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حكاية في مدينة اللؤلؤ

(أميرة التاجين)

في مارس ١٩٢٤ غادر الرجل الأشيب بلاده التي حكمها وأسرته مئات السنين، مصطحبًا عائلته الصغيرة حيث كتبت ابنته ذات العشر سنوات:

«إلى أين نحن ذاهبون؟ ربما إلى مأساة غير متوقعة، وربما إلى أيام غربة مملوءة بالجفاء والألم».

غادرت أسرة السلطان عبد المجيد الثاني قصر تشاملیجا باسطنبول بعد إسقاط الخلافة العثمانية فطردوا إلى شواطئ تركيا حيث حملتهم الرحلة إلى نيس.

ضاق بهم الحال حتى صُرف للسلطان المعزول مرتبًا شهريًا منحة من أغنى رجال العالم آنذاك! وأتم الجميل بدعوته للعيش بأراضيه، تلك البقعة الشاسعة جنوب الهند، الإمارة الأكبر والأعظم.. حيدر آباد.

كانت الهند مقسمة لإمارات تابعة للتاج البريطاني، وحيدر آباد كانت من أكبر وأعظم الإمارات، مساحتها تكاد تماثل مساحة بريطانيا ذاتها، وعثمان علي خان الملقب بنظام الدين كان أغنى حكام العالم.

استقبل نظام الدين السلطان عبد المجيد بحفاوة واختار ابنته الأميرة خديجة خيرية عائشة الملقبة بدر الشهوار بمعنى (جوهرة الملوك) زوجة لابنه الأكبر (حمايت علي خان) ولابنه الأصغر (شجاعت علي خان) ابنة عمتها نيلوفر.

كانت نيلوفر في الخامسة عشر من عمرها فتاة تربت في أوروبا، لديها شخصية شديدة الحضور والجاذبية. حاولت كخديجة ابنة عمها التأقلم على حياة حيدر آباد والاندماج معها. تحولت كلتاهما من أميرة تركية لهندية، خديجة التي أصبحت الأميرة برار الهندية تعلمت اللغة الأوردية سريعًا، ارتدت الساري الهندي وشاركت في العمل المجتمعي بحيدر آباد، وأسعدها القدر بطفلين من حمايت علي خان فثبتت قدميها في القصر.

ونيلوفر المحبوبة التي قيل أنها كانت من أجمل عشر أميرات على مستوى العالم، كان لديها حضور آخاذ وقع أسيرًا له كل من تعرف بها، كانت مثقفة تتحدث اللغات بطلاقة، كانت تخطف الأنظار بمجرد تواجدها في أي حفلٍ أو مناسبة.

كان لديها ذوق وحس خاص بالموضة، فارتدت الساري الهندي لكن بعد أن أضافت لمستها الخاصة، فقيل أنها جمعت بين جمال الشرق والغرب. وتصميمات الساري الخاص بها كانت تُقلد وتعرض في عروض أزياء باريس، وكذلك مجوهراتها المميزة.

شاركت في الأنشطة الاجتماعية وبَنَت أكبر مستشفى خاصة بالولادة (مستشفى نيلوفر) بعد وفاة إحدى وصيفاتها أثناء ولادتها، فاكتشفت ما تعانيه المرأة من إهمالٍ في الرعاية الصحية بها.

ولكن حياتها الزوجية لم تكن بنفس الوهج؛ غمر الحزن حياة نيلوفر في البلاط الملكي فلم تنجب الأبناء، ومثَّل ذلك ضغطًا كبيرًا عليها.

عاشت كلتاهما تحت مظلة نظام الدين الرجل الأقوى في الهند، حليف بريطانيا الوفي الذي ساندها بالمال والطائرات في الحرب.

كتبت مجلة تايم الأمريكية أن ثروته تقدر بـ ٢٣٦مليار دولار غير ما يمتلكه من الماس وزمرد والأحجار النفيسة التي لا يوجد لها مثيل في العالم. كان حاكمًا لإمارة تعيش على تجارة الذهب والماس واللؤلؤ ولذلك سميت «مدينة اللؤلؤ».

في عام ١٩٤٨ توفي السلطان عبد المجيد الثاني في فرنسا، وبدأت ابنته خديجة رحلة تحقيق وصية الوالد في دفنه في الأراضي التركية بجوار قبر ابن عمه عبد الحميد الثاني. زارت تركيا بصفتها الأميرة الهندية برار زوجة ابن صاحب النفوذ والمال نظام الدين رغم وفاة مصطفى كمال أتاتورك .كانت تعرف أن ابنة السلطان العثماني ما زالت غير مرحب بها، ورغم ذلك رُفض الطلب ودفن السلطان في باريس.

عشر سنوات مرت وخديجة تحاول بكل الطرق استصدار الموافقة على نقل جثمان والدها حتى حطمها اليأس واستجابت لدعوة بنقل جثمانه للبقيع ودفنه هناك بالأراضي المقدسة.

تلك الحرب التي خاضتها خديجة ولدت بداخلها غضبًا لم يُنسى جعلها ترفض استعادة جواز السفر التركي مرة أخرى بعد ذلك.

أما نيلوفر فكانت تخوض حربًا أخرى أسفرت عن طلاقها بعد عشرين عامًا من الزواج، وبعد قدوم زوجة ثانية لإنجاب الأبناء لم تحتمل مشاركة حياتها معها، وغادرت لباريس مرة أخرى. غادرت وهي تحمل معها ذكرياتها وعلاقات طيبة مع مشاهير الحياة بالهند.

في حيدر آباد تغير الحال بعد الحرب وانسحاب بريطانيا من الهند. ضمت الهند حيدر آباد لسلطتها بالقوة، لكن نظام الدين حافظ على احترامه وسلطته والأهم ثروته حتى وفاته سنة

١٩٦٧، وترك الورثة يتصارعون على وليمة من الثروات والكنوز بعد وفاته، فكان لديه عدد كبير من الأبناء الشرعيين والغير شرعيين، وقامت حكومة الهند بشراء مجموعة من المجوهرات من الورثة وتم ضمهم لمتحفٍ أثري.

بدأت نيلوفر حياة جديدة في باريس بزواجها من السيناريست إدوارد بوب. كان شخصية ليست على جانب كبير من الشهرة ولكن الزيجة سلطت الأضواء عليها لاختلاف ديانتهم وثقافتهم، وتوفت نيلوفر في عام ١٩٨٩.

أما الأميرة خديجة فقد عاشت في بريطانيا حتى وفاتها في عام ٢٠٠٦، وأوصت بدفنها في مقابر المسلمين، ليُسدل الستار على حكاية أميرتين جمعت كلتاهما بين التاجين التركي والهندي.

«من يقرأ التاريخ لا يدخل اليأس إلى قلبه،

وسوف يرى الدنيا أيامًا يداولها الله بين الناس.

الأغنياء يصبحون فقراء

والفقراء ينقلبون أغنياء

وضعفاء الأمس.. أقوياء اليوم

وحكام الأمس مشردو اليوم

والقضاة متهمون

والغالبون مغلوبون

والفلك دوار

والحياة لا تقف

والحوادث لا تقف عن الجريان

والناس يتبادلون الكراسي
ولا حزن يستمر ولا فرح يدوم».

دكتور مصطفى محمود

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عادل خيري وإيناس حقي

(كانت لديه مواهب كثيرة وعمر قصير).

أظن أنها أعجبت بخفة ظله ووقعت في غرامه لطيبة قلبه وقدرته الخارقة على إضحاكها. ذلك هو أقرب تفسير إن حاولنا أن نجد للحب تفسيرًا!

فتناست إيناس حقي الفتاة الأرستقراطية ذات الأحلام الكبيرة الفوارق والعقبات وانعطفت عن الطريق الذي رسمته لنفسها ممسكة بيد الحبيب لتشاركه أحلامه الممنوعة.

في كلية الحقوق تعارفا.. عادل خيري وإيناس حقي، وللصدفة كلاهما قد أجبر على دخول كلية الحقوق فهي أرادت كلية الهندسة، وهو أراد التمثيل.

راسلها بخطابات عاطفية ودعاها لمشاركته التمثيل في إحدى مسرحياته التي يقدمها على خشبة مسرح الجامعة. قبلت البطلة الرياضية الشهيرة التي أسست هي الأخرى فرقًا رياضية في الجامعة، وكانت تلك هي تجربتها الأولى والأخيرة في التمثيل.

درست الحقوق لرغبة والدتها أن تسير في نفس درب الوالد الذي توفي في صغرها، فربما يكون لها شأن ذات يوم كزوج عمتها طلعت باشا حرب.

ودرس عادل الحقوق لرغبة والده الذي اشترط عليه إتمام دراسته أولًا إن كان مُصرًا على اقتفاء أثره في الفن.

واستجاب عادل لرغبة والده ذلك الرجل المحنك، الذي مُزج بكل أشكال الفن وصب في كيانٍ واحد انتمى له جيل كبير من فناني القرن العشرين إنه بديع خيري.

بديع خيري الذي كان في الأصل معلمًا للجغرافيا، ولكنه تمرد على الطريق المعتاد وذهب خلف مواهبه العديدة فكتب الزجل والقصة، قام بالغناء والتلحين، كتب للمسرح والسينما وكان الأول والأكثر تميزًا.

التقى بصديقه سيد درويش ونجحا سويًّا في تقديم فن الأوبريت.

وفي عام ١٩١٨ كوَّن مع نجيب الريحاني أقوى ثنائي حتى ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين، فكان نجيب الريحاني رفيق دربه ورفيق روحه.

أشفق الريحاني على عادل الشاب الذي توهج حلم الفن في عينيه وأراد في البداية تعلم الإخراج، فوعده الريحاني بالتدخل والتوسط له عند أبيه للسفر إلى إيطاليا بعد حصوله على الشهادة التي أرادها الوالد. فرضخ عادل لطلب والده وأغلق في وجهه باب الفن، ثم وجد نفسه بعد ذلك أمام بابٍ آخر يغلق في وجهه.. باب الحب!

رفضت عائلة إيناس الزيجة والنسب بينها وبين عائلة فنية، ولكن إيناس ما كان يمكنها التخلي عن حبها «عادل خيري».

في عام ١٩٥٥ كانت صورة إيناس توضع بفخرٍ على صفحات الجرائد.. لقد نجحت الفتاة كأول مصرية في الفوز بلقب بطولة العالم الأولى في السباحة للفتيات في فرنسا، وحصلت على وسام الدولة من الطبقة الأولى من الرئيس جمال عبد الناصر.

وأشاد الجميع بعروس النيل التي أصبحت بعد ذلك بعامٍ واحد.. عروسَ عادل خيري. رسم الزوجان أحلامهما بألوانٍ واحدة.. فأسسا البيت قطعة قطعة وافتتحا مكتبًا للمحاماة.

كان بديع خيري يعتمد على ولده في مساعدته في إدارة المسرح الذي ثقلت عليه مسؤوليته بعد وفاة صديقه وبطل الفرقة نجيب الريحاني بشكلٍ مفاجئ، ولم يجد في أي واحدٍ من أبطال الفرقة بديلًا للريحاني، ولكن عادل الذي كان قد بدأ في أداء أدوارٍ صغيرة حقق نجاحًا ملحوظًا فرحب به الجمهور لأداء دور الريحاني، ونجح نجاحًا مبهرًا جعل الحضور في قاعة المحكمة يلقون نكاته الشهيرة ويسقطون في نوباتٍ من الضحك فور بدئه الحديث كمحامي في قاعة المحكمة، لذلك قرر ترك المحاماة والتفرغ للمسرح.

كان مسرح الريحاني مؤسسة لا تسقط بسقوط بطلها، هذا ما حاول بديع خيري الحفاظ عليه طوال حياته.

رُزق عادل وإيناس بثلاث فتيات قررا تسميتهن بأسماء تبدأ بحرف العين (عطية، عزة، عبلة)، وأسميت عطية على اسم جدتها لأمها.

توهج نجم عادل خيري الشاب متعدد المواهب كوالده فكان يهوى التمثيل والغناء والكتابة، ورتّل القرآن وسجله بصوته، فكما وصفته ابنته الكبرى.. كان لديه مواهب كثيرة وعمر ووقت قليل.

أصيب عادل خيري بمرض السكر وكان شديد الإهمال في حالته الصحية كأنه كان يتعجل العمل والنجاح. فعمل بالمسرح والسينما والتلفزيون وله مسرحيات عديدة لم تُسجل ولم تُذكر في أيامنا. وحاولت إيناس اللحاق به كي تهتم بحالته الصحية لكنها كانت تسوء يومًا بعد يوم.

طالت الليالي بعادل خيري في المشفى وكان يخرج مسرعًا للحاق بخشبة المسرح حتى حانت ساعة الرحيل فغادر الحياة وهو في الثالثة والثلاثين تاركًا كبرى بناته لم تتجاوز السادسة من عمرها.

كان الصمود طريقًا داميًا بالنسبة لبديع خيري الأب الذي ما كان قد شفي من ألم فقدان الزوجة ورفيقة الروح بعد حتى يفقد ولده الشاب صاحب الابتسامة والروح المشعة، ولكن كان عليه الوقوف لأنه لا يوجد خيار آخر. كما فعل بديع مسبقًا بحث عن البديل لروايات مسرح الريحاني فاستعان بمحمد عوض أحيانًا ثم بفريد شوقي كبطلٍ للفرقة.

وفي الحياة وجد إيناس تقف مكان عادل تستمد قوتها منه، ويستمد قوته منها من أجل الصغيرات.

أبعدت إيناس بناتها عن المسرح والتمثيل تمام البعد، وكذلك أيضًا فعل الجد، وحاولت البطلة القديمة الوصول بأسرتها للبر الآمن. شجعت فيهن العلم والموهبة واستطاعت عبلة تحقيق حلم أمها الذي لم يسعها القدر لتحقيقه في الماضي فاستطاعت عبلة خيري عبور المانش في الثالثة عشر من عمرها وسُجل اسمها في موسوعة جينيس.

حاولت إيناس في الماضي عبور المانش هي الأخرى ورفض الاتحاد تحمل النفقات، ثم وافقت مؤسسة أخبار اليوم وسافرت إيناس للمشاركة في ثلاث مسابقات منهن المانش، وحققت المركز الأول في الاثنتين، ومنعها الطقس وسوء الأحوال الجوية من محاولة عبور المانش، ولكن نجحت عبلة وكُرمت من الرئيس السادات.

بعد وفاة بديع خيري في عام ١٩٦٦ولحاقه بولده بعد ثلاث سنوات كان على إيناس استكمال الطريق وحدها. كانت تعمل في الشئون القانونية في التلفزيون، ثم في مصر للتأمين لتعول بناتها حتى كبرن، وأصبحت الكبرى فنانة رسوم متحركة وحصدت العديد من الجوائز، والوسطى طبيبة سافرت لهولندا، أما عبلة السباحة أصبحت مديرة لأحد البنوك.

رفضت إيناس حقي الزواج مرة أخرى وعاشت من أجل تربية بناتها، وبذكرى ثمان سنوات من الزواج والحب عبرت الكثير من الصعاب حتى توفيت في عام ٢٠٠٩.

كتب لها عادل خيري إهداءً على صورة زفافهما: «إلى السيدة التي أتشرف بأن أكون السبب في سيادتها»، هل قرأتها مثلي وابتسمت؟

«وخلاصة التجارب كلها في الحب،

أنك لا تحب حين تختار،

ولا تختار حين تحب وأننا مع القضاء والقدر

حين نولد وحين نحب وحين نموت».

عباس محمود العقاد

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عائلة رومانوف

إنها قصة زاخرة بالأحداث والشخصيات. قصة يغمرها الغموض، ذات نهاية مأساوية لأسطورةٍ عظيمة من السلطة والقوة والثراء. نهاية إمبراطورية امتلكت أكبر ثروات الأرض. سيطرت عائلة رومانوف على مدى ثلاثة قرون على عرش روسيا، أجيالًا بعد أجيال حتى أتى نيكولاس الثاني.

نيكولاس الثاني أو نيقولا الثاني، الرجل الذي قُدرت ثروته حينذاك بثلاثين بليون دولار رحل بشكلٍ مأساوي ومحير ودار الجدل حول حكمه ونهايته لعشرات السنين.

كان نيكولاس خلفًا لوالده القيصر ألكسندر الثالث القوي المسيطر، وإن حاولت المقارنة بين نيكولاس ووالده ستتهاوى كفة نيكولاس بالتأكيد.

وُصف بأنه افتقر للحكمة والذكاء، وأنه كان كمن دُفع به نحو السلطة دونًا عن رغبته.

كان من المفترض أن يرتبط نيكولاس بدوقة فرنسية لتقوية العلاقات بين البلدين، لكن قلبه كان متيمًا بألكسندرا.. الأميرة الألمانية التي تعرف بها في زفافٍ عائلي، تواعدا بعده على المراسلة، فتأججت قصة حبهما، فأرادا إتمامها بالزواج، ولكن رفضت العائلة ولم تبارك هذا الارتباط، لكن صمم ولي العهد العاشق على العروس التي اختارها قلبه، وفي النهاية رضخت العائلة لرغبته.

بعد وفاة القيصر تسلم نيكولاس الحكم رسميًا ورُزق بأربع فتيات (أولغا، تاتيانا، ماريا، أنستازيا). كانت لدى ألكسندرا مشكلتان في روسيا، الأولى أنها ألمانية وقد فشلت في التقارب مع

الشعب فلم تكن تجيد الظهور وجذب العيون والقلوب، والثانية أنها لم تنجب ولي العهد.. إلى أن أنجبت أليكسي فأصبح لديها مشكلة ثالثة!

فالصغير كان مصابًا بمرض الهيموفيليا، فكانت حياة ولي العهد دائمًا في خطر، وكان أليكسي هو هاجسها وكابوسها المرعب، فأهملت جوانبًا كثيرة في سبيل الاهتمام بعلاجه، حتى لجأت يائسة إلى رجلٍ فلاح بسيط عُرف بقدراته الخاصة التي لا تقف عند حدود الطبيعة. وكان هذا الرجل هو جريجوري راسبوتين.

راسبوتين، ما أشهر ذلك الاسم حتى يومنا هذا، وكم دارت حوله قصص كثيرة بعضها قد لا يكون سوى شائعات تناولتها الأجيال.

قيل عنه أنه ماجن فاسق متعدد العلاقات النسائية، غارق في الرذيلة بمبدأ يجب أن نرتكب الآثام حتى نتوب إلى الله.. فالرب يحب التوابين!

أصبح راسبوتين قوي التأثير على ألكسندرا، فقد استطاع السيطرة على حالة أليكسي أو هكذا أوهمهم، وتدخل في قرارات الدولة الهامة، وانتشرت الشائعات وزاد الغضب بين الناس على القيصر وأسرته.

زاد الغضب على نيكولاس بعد قرار الحرب مع اليابان وهزيمتها في الحرب هزيمة مخجلة، وثار العمال ضده فأصدر أوامر بضرب المتظاهرين بالرصاص.

ثم اتخذ القرار الذي قرب بنهايته وهو دخول روسيا الحرب العالمية الأولى، وكانت لم تستجمع قواها بعد حرب اليابان، فهُزمت هزائمًا كبيرة ومات الملايين في الحرب.

كان راسبوتين معارضًا لدخول روسيا الحرب وحذر القيصر بشكلٍ مستمر، بل إنه تنبأ بأن بعد الحرب سيقتل وكذلك القيصر، وهذا ما حدث بالفعل!

كان أمل القيصر في الخروج من ذلك الوحل هو صلح بين روسيا وألمانيا كي يخرج من الحرب التي أغرق فيها البلاد، ولكن هذا الحل لم يلقَ أيضًا الاستحسان!

غضب الشعب من فكرة الصلح والاستسلام لألمانيا، ودارت الظنون حول ألكسندرا الألمانية الخائنة التي تدخلت في الحكم لصالح وطنها الأم.

لقد وسوست لنيكولاس بدخول الحرب وها هي تدفعه للاستسلام بعد أن تكبدت روسيا خسائرًا طائلة، وبالطبع ساعدها الشيطان راسبوتين في خطتها وخيانتها.

حاول القيصر تقديم بعض الإصلاحات لإخماد نار الغضب مثل إنشاء مجلس الشعب (مجلس الدوما)، فاجتمع رجال المعارضة ولكن ضد القيصر وزوجته. وفي تلك الظروف العصيبة تعالت أصوات الثورة التي قادها البلاشفة الدعاة للاشتراكية لإنهاء حكم القيصر. وسنة ١٩١٧ نجحت الثورة في إجبار القيصر على التنازل عن الحكم.

تم نقل القيصر وأسرته إلى بيتٍ منعزل على أطراف سيبريا، وحكم البلد مجلس انتقالي، ثم نقل بعد فترة إلى مدينة يكاترينبورغ.

بعد عدة أشهر في بيت إيباتيف المنعزل حيث انتظر القيصر وعائلته المصير المحتوم، ترى ستكون المحاكمة النفي خارج

البلاد، أم قد ينجح الموالون لحكم القيصر في السيطرة من جديد؟!

في منتصف إحدى الليالي كانت الإجابة.. تم اقتياد القيصر وأسرته واثنين من الخدم والطبيب الذي كان يشرف على حالة أليكسي وتم إخبارهم أنه سيتم نقلهم إلى مكانٍ آخر بسبب أن بعض الموالين للقيصر زحفوا نحو المدينة لتحريره.

نزلوا جميعًا للدور السفلي وطلبوا منهم الانتظار لتؤخذ لهم صورة جماعية. دخل القائد المشرف على الحراسة مع جنوده وتلا حكم الإعدام ثم انطلق الرصاص في مشهدٍ من أكثر المشاهد وحشية في التاريخ.

تم قتل الجميع وبعضهم لم تأتِ نهايته سريعًا، فالفتيات مثلًا وبسبب ارتدائهن مشدات سميكة أسفل ملابسهن ولإخفائهن مجوهراتهن في ملابسهن أيضًا، ولأنهن احتمين ببعضهن البعض لم يمتن على الفور واضطر الجنود لقتلهم بالضرب والطعن.

ولم تكن تلك هي نهاية الإعدام الوحشي لأسرةٍ من أطفال وسيدات وأشخاص لا ينتمون للحكم.. فقد أُخذت الجثث ونقلت لمكانٍ بعد أن تم تقطيعها وإغراقها في الحمض حتى تُتلف معالمها ولإخفاء الجريمة إلى الأبد.

اعترف البلاشفة بقتل القيصر وأنكروا تمامًا إعدام عائلته، كان من المستحيل مواجهة العالم بجريمة كهذه، بالإضافة للخوف من الجانب الألماني الذي سيطالب بحقوق ألكسندرا زوجة القيصر وأبنائها.

مرت السنوات التي سيطر فيها الحزب الشيوعي على الحكم وقام رجاله بإخفاء الكثير من الأدلة.

وساءت أحوال الشعب وبدأ الغضب الذي أطاح بالقيصر يهدأ مع السنين، ورغم الشائعات كان اليقين لدى الغالبية أن أسرة القيصر بالكامل قد أُعدمت.

وظهرت قصة خيالية لطيفة تمسك بها الشعب لسنواتٍ طويلة هي أن أنستازيا الابنة الصغرى للقيصر نجحت في الهرب في تلك الليلة العصيبة لوقوع أحد الجنود في حبها، وبين الحين والآخر كانت تظهر شخصية تدّعي أنها الأميرة الهاربة وتطالب بحقها في ميراث عائلة رومانوف. أشهرهم «آنا أندرسون» التي استمرت قضيتها في المحاكم لسنوات وماتت قبل ظهور الحقيقة.

بعد سنواتٍ طويلة من البحث في موقع اختفاء القيصر وعائلته تم اكتشاف مكان الجثث التي تم طمسها، ومع التطور في التسعينات تم التأكد تمامًا أن العظام التي وجدت تنتمي للقيصر وعائلته. كما تم الكشف عن الحمض النووي لآنا أندرسون واكتشف أن ليس لها علاقة بآل رومانوف، واعتبرت من أكثر المخادعين في التاريخ.

بعد أكثر من تسعين عام من قتل القيصر في ١٩١٨ أصدرت المحكمة حكمها النهائي وأقرت بالجريمة التي حدثت، واعتبرتهم الكنيسة شهداء، وأقامت مكان البيت الذي أُعدمت فيه العائلة كنيسة واعتبروا قديسين، وما زال في ذكرى الإعدام تُقام مسيرات إحياء لذكرى آل رومانوف.

لا يمكن إخفاء حقيقة للأبد.. فللنار رائحة لا تنطفئ معها.

«حتى لو دُفنت الحقيقة تحت الأرض،

فإنها سوف تنمو وتكبر،

سوف تحشد كل عوامل الانفجار،

وعندما تحين لحظة انفجارها،
ستفجر معها كل شيء».

إميل زولا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كثيرون حول مارلين مونرو..

قليلون حول آرثر ميلر

(لديَّ إحساس أنني لست حقيقية تمامًا، بل أنني زيف مفتعل ومصنوع بمهارة، وكل إنسان يشعر بهذا الشعور من حين لآخر، أما أنا فأشعر بهذا طوال الوقت.. بل أني أشعر أني زيف سينمائي صنع بإتقان).

صاغت مارلين مونرو شعورها في تلك الكلمات التي كتبتها في رسالة سنة ١٩٦٠ قبل وفاتها بعامين، بعدما أصبحت رمزًا يمثل الصورة المثالية البراقة للمرأة.

هي نورما جين مونتنصن، وقامت بتغيير الاسم بعد ذلك لنورما جين بيكر نسبةً لوالدتها التي لم تكن واثقة من شخصية الأب، ورفضت أمها رعايتها وأدخلتها دارًا للأيتام. تنقلت مارلين بين الأسر وبين دور الأيتام، وروي أنها قد تعرضت للتحرش وسوء المعاملة، وكان ذلك سببًا في زواجها وهي في السادسة عشر من عمرها من شاب في الحادية والعشرين للهرب من الحياة في دور الأيتام.

لكنها كانت تحلم بالدخول إلى عالم الشهرة، لهوليود بأضوائها البراقة، ووضعت قدميها على أول طريق نجوميتها بعد أن نشرت صورها في إحدى شركات الدعاية كموديل، وتحمست شركات الإنتاج لمارلين بعد تغير شكل فكها وأنفها وأسنانها، واعتمدت نظامًا غذائيًّا منظمًا، ولعبت رياضه شاقة كي تحصل على الجسد المثالي الذي يشبه الساعة الرملية.

الأفلام التي قدمتها مارلين كانت تقدمها دومًا بشخصية المرأة الجميلة السطحية التافهة. ويقال أنه حتى تلك الأدوار البسيطة كانت تجد مارلين صعوبةً في أدائها، صعوبة في حفظ النص وتذكره، ومشاهد بسيطة كانت تُعاد عشرات المرات.

ولكن مارلين مونرو في الحقيقة لم تكن الشخصية التي تمثلها في الأفلام، بل كانت قارئة جيدة، وكانت لديها مكتبة كبيرة في بيتها، وأكثر الكتب التي كانت تفضلها كتب سيجموند فرويد.

ولكنها كانت شخصية مضطربة وحزينة كما قال عنها زوجها: «كانت أكثر فتاة حزينة قابلتها في حياتي»، الزوج الذي كان ارتباطه بها مرحلة غامضة ومتناقضة في حياته وحياتها.

آرثر ميلر.. عملاق الأدب والمسرح الأمريكي في القرن العشرين.. الرجل ذو الموقف السياسي والإنساني في كل كتاباته الرافض لجميع أشكال القمع والديكتاتورية.. ذلك الفتى الذي تراقص بين خط الثراء والفقر يومًا ما ونالت فترة الكساد الاقتصادي في ١٩٢٩من ثروة والده، فذاق مرارة الانسحاق في العالم الذي تحكمه المادة متناسيًا المعنى الأسمى لغاية الوجود ومبادئ العدل والإنسانية.

كان أغزر إنتاجه للمسرح. حاول تجسيد الصراع بين الفرد والمجتمع وكانت أولى أعماله: (الرجل الذي له كل الحظ)، وأتبعها بأعمالٍ أكثر نجاحًا مثل: كل أبنائي، البوتقة، ووفاة بائع متجول، ونالت أعماله العديد من الجوائز وأثارت ضجة واسعة.

لقد تبنى ميلر الاتجاه اليساري، وهاجم السياسة الأمريكية، وتعرض لتضييقٍ شديد من الحكومة الأمريكية التي حسبته على الاتجاه الشيوعي في وقت العداء البارد بين أمريكا وروسيا،

فتعرض للمحاكمة وللمراقبة في زمن المكارثية في الخمسينات، حيث شهدت الولايات المتحدة حملة محمومة ضد ما وصف وقتها بـ (الخطر الشيوعي) بعد أن أعلن عضو مجلس الشيوخ الأمريكي (جوزيف مكارثي) أن لديه قائمة تضم أسماء موظفين يعملون في وزارة الخارجية الأمريكية، ويشتبه بأنهم شيوعيون.

وعقب ذلك انطلقت في الولايات المتحدة حملة مطاردة شاملة وغير مسبوقة في القرن العشرين أدت إلى اعتقال آلاف الشيوعيين أو الذين يشك بأن لديهم توجهات شيوعية، وجرى تقديمهم إلى القضاء بتهمة محاولة الإطاحة بالحكم بالقوة أو العنف. فأعدت قوائم سوداء تم التضييق عليهم في دعوةٍ للتخلص من الوباء الأحمر كما وصفوه.

فجأة أُعلن خبر زواج آرثر ميلر بنجمة هوليوود المثيرة مارلين مونرو سنة ١٩٥٦ واختلفت التفسيرات والدوافع.

رغم محاولات النجاح وتكوين الأسرة المستقرة إلا أن الزيجة انتهت بالفشل سنة ١٩٦١. يُقال بسبب شخصية مارلين التي كان من الصعب التكيف معها ونمط حياتها. يُقال أيضًا بسبب اكتئابها بعد عدة مرات من الإجهاض، ويقال بسبب خيانتها له، ويُقال بسبب ضغوطات المكتب الفيدرالي على آرثر ميلر ومارلين التي وضع اسمها هي أيضًا على القائمة السوداء بعد ارتباطها به.

تزوج آرثر ميلر بعد مارلين من المصورة المحترفة إنجي موراث وأنجبا طفلين، ريبيكا ودانيال. وبقيا متزوجين حتى وفاتها. واستمر في الكتابة وقُدمت أعماله على المسرح وحققت النجاح في أمريكا ولندن.

عُرض على آرثر ميلر التكريم من شارون رئيس وزراء إسرائيل وتسلمه جائزة القدس في عام ٢٠٠٣، ففكر في رفضها، ثم قرر قبولها بعدما أرسل شريط فيديو ينتقد فيه سياسة الاستيطان وقتل المدنيين قائلًا: «إن قمع الفلسطينيين والمستوطنات في الضفة الغربية، خيانة لمثل التوراة العادلة التي ألهمت تأسيس دولة إسرائيل». ودعا إلى قيام دولة فلسطينية وقال: «إن ما بقي من الحلم بمجتمع تقدمي مسالم في ١٩٤٨ هو الضد تمامًا: مجتمع مسلح يائس على خلاف مع جيرانه والعالم»، لقد أدان آرثر الممارسات الإسرائيلية وأعلن احتجاجه على الدولة الصهيونية.

توفي آرثر ميلر في عام ٢٠٠٥ في أواخر عقده الثامن، مريضًا محاطًا بأبنائه وأحفاده وذكرياته التي كانت مارلين مونرو جزءًا أصيلًا منها.

وفي ذاكرة عموم الناس تعيش أسطورة هوليود مارلين مونرو، وربما كان الغموض الذي أثير حول وفاتها أحد أهم الأسباب في ذلك، فقد اكتُشفت جثتها العارية في سريرها، وخرج تقرير الطب الشرعي أن الوفاة كانت بسبب الانتحار بجرعة كبيرة من أدويتها المهدئة، فقد كانت تعاني من الاكتئاب. لكن قصصًا كثيرة أُثيرت حول علاقتها بروبرت كيندي الأخ الشقيق لجون كيندي الرئيس الأمريكي، وأنه السبب في قتلها بعدما هددته بفضح علاقتها بآل كيندي. ويُقال أن هناك تسجيلات صوتية لمارلين مونرو وهي تحكي عن علاقتها بروبرت وخوفها من القتل، وتقدمت مطالبات بإعادة تشريح جثتها، وما زالت علامات الاستفهام تدور حول مقتلها.

كانت أمريكا تحاول تصدير الصورة المبهرة عن نفسها للسيطرة على العالم اقتصاديًّا وثقافيًّا، فهل مارلين كانت لعبة تتحرك بخيوط سياسية؟! هل دُفع بها لأداء دورٍ لم تتحمله؟

كانت مارلين تمثل ما انتقده آرثر ميلر في أعماله (الحلم الأمريكي)، الشره للكمال والنجاح وسيطرة المادة وتوحش العالم وابتلاعه لأحلام أُناس عادية!

«وسائل الإعلام هي الكيان الأقوى على وجه الأرض،

لديهم القدرة على جعل المذنب بريئًا،

وجعل الأبرياء مذنبين،

وهذه هي السلطة لأنها تتحكم في عقول الجماهير».

مالكولم إكس

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بلقيس الراوي

زوجة نزار قباني

شكرًا لكم..

فحبيبتي قتلت

وصار بوسعكم أن تشربوا كأسًا على قبر الشهيدة

وقصيدتي اغتيلت

وهل من أمة في الأرض إلا نحن

تغتال القصيدة.

بلقيس الراوي.. الفتاة العراقية التي أعُجب بها نزار قباني وسلبت عقله بينما كان يلقي إحدى ندواته الشعرية في العراق، وعندما نضج الإعجاب وولد الحب، قرر نزار قباني طلب يدها للزواج. لكنه لم يكن الزوج المناسب الذي تقبل به أسرة بلقيس، فقُوبل طلبه وحبه بالرفض.

اعترضت عائلة بلقيس على تاريخ نزار العاطفي الذي تشبعت به قصائده، وأسلوبه الجريء في الحديث عن الحب، الذي قد يكون تعدى الجرأة أحيانًا.

يئس نزار قباني من تغير موقف العائلة ونيل موافقتهم فسافر إلى إسبانيا وعمل كدبلوماسي في السفارة هناك لمدة ثلاث سنوات لم تنقطع فيها الرسائل بينه وبين محبوبته بعيدة المنال.

قال نزار: «قصتنا كانت ككل قصة حبٍ في هذا المجتمع قوبلت (بلا) كبيرة»، بعد ثلاث سنوات تمت دعوته للعراق مرة أخرى لندوة شعرية، فذهب إليهم عاقد العزم على نيل إعجابهم

ورضاهم. فألقى قصيدة عن العراق نالت الاستحسان كان مطلعها:

مرحبًا بك يا عراق، جئت أغنيك

وبعض من الغناء بكاء

أكل الحزن من حشاشة قلبي

والبقايا تقاسمتها النساء؟

ثم اصطحب وكيل وزارة الخارجية ووزير الثقافة العراقي معه لمقابلة عائلة بلقيس وطلب يدها، وفي تلك المرة حصل على الموافقة، وتمت الزيجة.

أنجبت بلقيس عمر وزينب، واعتبرت نزار الابن الثالث فكانت له بمثابة الأم التي احتوت عيوبه ونقائصه، حتى أنه كتب تلك قصيدة في عيد زواجهم العاشر:

أشهد أن لا امرأة

أتقنت اللعبة إلا أنتِ

واحتملت حماقتي

عشرة أعوام كما احتملتِ

واصطبرت على جنوني مثلما صبرتِ

وقلمت أظافري

ورتبت دفاتري

وأدخلتني روضة الأطفال

إلا أنتِ.

قصيدة لخص بها علاقته ببلقيس وأسباب نجاحها. كانت بلقيس تعمل في السفارة العراقية في بيروت، وفي سنة ١٩٨١انتهت أيام السعادة في حياتهما.

«راحت من كانت هويتي وواحتي وملاذي وأقلامي» كما قال عنها نزار قباني الذي فُزِع بخبر تفجير السفارة في حادثٍ إرهابيّ.. راحت بلقيس كإحدى ضحاياه.

علم نزار قباني بعد وفاة زوجته حين حضر ياسر عرفات الجنازة بنفسه أنه على صلة قديمة ببلقيس التي قدِمت إلى ياسر عرفات وهي فتاة في المرحلة الثانوية لمقابلته في الأردن هي وصديقاتها، وطلبت منه الانضمام لحركة التحرير الفلسطينية، وأن يتدربن على حمل السلاح وبالفعل هذا ما حدث.

وبعد عامين قابلها في السفارة ودار بينهما حديث عن القضية الفلسطينية وكفاحهم المستمر، لذلك فهو يعدها كابنة لحركة الكفاح الفلسطيني.

بلقيس كانت أجمل الملكات في تاريخ بابل

كانت أطول النخلات في أرض العراق

كانت إذا سارت ترافقها الطواويس

وتتبعها الأيائل

بلقيس يا وجعي

ويا وجع القصيدة حين تلمسها الأنامل

هل يا ترى من بعد شعرك

ترتفع السنابل؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جونز تاون

على طريقة الأفلام الأمريكية.. مجموعة تذهب في رحلة لمكان منعزل لقضاء وقت ممتع فتحدث مفاجآت غير متوقعة!

تدور أحداث حكاية معبد الشعب، جونز تاون.

في أمريكا وتحديدًا ولاية كاليفورنيا ظهرت شخصية مثيرة للجدل، رجل يُدعى القس جيم جونز.. رجل أبيض ذو أفكار اشتراكية يدافع عن حقوق السود ويدعو للمساواة وللحب حيث لا يوجد فرق بين غني وفقير، أبيض وأسود. خطيب مفوَّه وشخصية ذات تأثير قوي.

أصبح لديه آلاف الأتباع وانشق عن الكنيسة وأنشأ كنيسة مستقلة أسماها «معبد الشعب».

خطبه الرنانة، أحاديثه عن المساواة، ادعائه المقدرة على شفاء المرضى وأعماله الخيرية جعل عدد أتباعه في أمريكا يصل لـ٣٠ ألفًا تقريبًا.

لكن الصحافة أحاطت جيم جونز، معشوق الجماهير بعشراتٍ من علامات الإستفهام!! عن مبادئه، وما يدعو إليه، وكيف سينفذه، وكانت إجاباته دومًا تنحصر في فكرة أنه مضطهد، وأن كل من يعارض شخصه إنما يعارض طائفته، ويعارض أفكاره النبيلة! احتكر الرغبة في الإصلاح لنفسه وكل من ينتقده هو ضده!

زرع فكرة الاضطهاد في عقول أتباعه والرغبة في البعد والاستقلال عن المجتمع الذي يحاربهم.

استطاع جيم الحصول على موافقة من الكونجرس ببناء مدينة أحلامه (مدينة الشعب)، ويقال أن زوجة الرئيس كارتر تدخلت للموافقة على طلب جيم جونز ومُنح الأرض بالفعل في ولاية جويانا في أمريكا الجنوبية، وهاجر معه عدد من أتباعه وبدأوا بتعمير الأرض وبناء مدينة الأحلام.

لقد نُبذت العنصرية فيما بينهم، وتحققت المساواة التي دعا إليها القس، كان الحب هو القانون السائد بالإضافة لقوانين أخرى.

بعد قليل من الوقت جُرد الناس من ممتلكاتهم ودخلت في خزينة المعبد، واختير بعض الأشخاص ليكونوا أعين جيم بينهم ليظل الوضع تحت سيطرته.

كانت له أساليبه في الترهيب، وقمع الآراء فأصبح صوته فوق أي صوت.

انقلب الأصدقاء على بعضهم البعض وأصبح إثبات الولاء غاية يجب أن يحققها الجميع. تحول الجمع السعيد لسربٍ من المضطربين، لمجموعة مكبلة الإرادة من عبيد جيم جونز.

قام جيم جونز بتدريبهم على استخدام السلاح؛ فهم دائمًا المستهدفون الذين يسعى العالم لهزيمتهم.

انقاد البعض لتلك الأفكار، وحاول الآخرون الخروج من الدائرة، ولكن كانت هناك نغمة ترهيب خفية تجبرهم على الاستمرار. حاول بعضهم إرسال استغاثات للكونجرس أنهم محتجزون داخل جونز تاون، فوصل وفد من الكونغرس لكي يقيم الأوضاع، وفِي البداية ابتلعوا الحيلة التي لعبها جيم جونز والتمثيلية التي

دبرها بإحكام. أناس سعداء، أطفال ترقص، إنها مدينة الحب والسعادة.

لكن في اللحظة المناسبة وصلتهم رسالة خفية من أحد أعضاء البلدة أن ما يحدث مجرد خدعة. وحين بدأ أعضاء الكونجرس القادمين للبلدة بالضغط على المواطنين، بعض الأسر تجرأت واعترفت أن بقاءهم في المدينةِ بدافع الخوف فقط.

تأكد جيم جونز أن وفد الكونجرس قد وصل للحقيقة فأصدر أوامره بقتلهم هم ومن انضم إليهم من السكان قبل أن يغادروا جونز تاون!

وبالفعل قام أتباع جيم جونز بضرب النار بشكلٍ عشوائي بينما كان يستعد الوفد لركوب الطائرة بصحبة بعض السكان.

علم جيم أنه قد سلك طريقًا لا رجعة فيه، وأن الأمر لن ينتهي بما فعل، بل سيبدأ وكان عليه اتخاذ القرار.

قرر جيم جونز بأنّ الرد على ذلك التدخل هو الانتحار الثوري كما أسماه. وأمر بتحضير مشروب من عصير العنب يوضع فيه سم السيانيد! كيف انقادوا ونفذوا القرار؟! هل عن اقتناع؟ عن خوف؟ هل ظنوا أنها مجرد خدعة واختبار للولاء ليس أكثر؟ اختلفت الآراء وشهادات الناجين.

في ١٨نوفمبر ١٩٧٨صُدم العالم بخبر انتحار أكثر من ٩٠٠ شخص في جوايانا من بينهم مئتي طفل، بالإضافة لمن قُتلوا من وفد الكونغرس!

لم تكن تلك هي حادثة الانتحار الجماعي الوحيدة في التاريخ، وكثير من تلك الحوادث كانت مرتبطة بطوائف دينية، فكثير ما يلتبس الباطل في صورة إنسانية جميلة.

«ثمة عدوى واحدة
تنتشر أسرع من الفيروس
ألا وهي الخوف».

دان براون

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فرح

آخر إمبراطورة لإيران

في عشاءٍ عائلي عرض محمد رضا بهلوي على فرح الزواج، ابنة أحد جنرالات الحرس الجمهوري وصديقة ابنته الكبرى التي كانت في مثل عمرها.

طارت فرح بعرض الشاه غير مهتمة بفارق العمر والتجارب. يكفي أنها ستكون زوجته وستطأ قدماها القصر الذي دارت فيه عشرات الحكايات وتكون الإمبراطورة (الشاهبانو فرح ديبا).

قبل ذلك اليوم بسنوات عديدة ربما كانت فرح للتو قد وُلدت، زُفت الأميرة فوزية ابنة فؤاد الأول وأخت الملك فاروق ملك مصر لمحمد رضا بهلوي الذي كان وليًا للعهد آنذاك.

زيجة رحب بها فاروق بينما لم ترحب بها والدتها الملكة نازلي، بينما كانت فوزية الحسناء عصفورًا ليس له تجارب في الحياة خارج القفص.

فوزية التي قال عنها السفير البريطاني في مصر أنها «أجمل نساء الأرض»، ومن غير شك كانت الأميرة فوزية من أجمل أميرات الأسرة الحاكمة، وبالإضافة لجمالها كانت شخصية متواضعة وبريئة.

أُقيم حفل زفاف أسطوري في مصر، وآخر في إيران. وفي عام ١٩٤١ أصبحت فوزية إمبراطورة إيران بعد تولي محمد رضا الابن الحكم بعد إزاحة أبيه.

لم تجد فوزية نفسها ولم تعرف السعادة في البلاط الإيراني، وبعد سنوات قليلة انتهت الزيجة بالفشل. قيل لتعاسة الأميرة

فوزية، وقيل لرغبة أخيها في إنهاء الزيجة كما رغب من قبل في إتمامها. لغز لم تفسره السنوات إلا بمجرد احتمالات.

عادت فوزية لمصر في زيارة لعائلتها، ومن مصر أُرسل للشاه طلب الطلاق. مفاجأة أثارت غضب الشاه.

وكان على الأميرة فوزية التخلي عن ابنتها «الأميرة شاهيناز» كما تخلت عن التاج، لتتربَّى الابنة في قصر الشاه كأميرة إيرانية. تم الطلاق رسميًّا في عام ١٩٤٨بعد ثلاث سنوات من عودتها لمصر.

ربما لا يمكن لفرح العروس الجديد منافسة الأميرة فوزية في جمالها، ولكنها لم تكن منافستها الوحيدة، فقد سبقتها إلى القصر وإلى قلب الشاه ذات العيون الحزينة (ثريا أسفنديارى) الزوجة الثانية للشاه.

ثريا ابنة السفير الإيراني بألمانيا الفتاة التي لا يشابه جمالها جمال، والتي وقع اختيار محمد رضا بهلوي عليها كعروس له بعد الأميرة فوزية. وبالفعل أقيم الزفاف في عام ١٩٥١.

افتقدت ثريا للسعادة كالإمبراطورة السابقة حتى لُقبت بالأميرة الحزينة التي سكنت عيناها الجميلة نظرة حزن وألم دائم. ولكن تعاسة ثريا كانت بسبب عدم قدرتها على الإنجاب، وفي زيجات الملوك لا مكان لزوجة لا تنجب وليًا للعهد.

وبعد سبع سنوات وقع الطلاق، وغادرت ثريا لأوروبا حيث حاولت إحياء حلمها القديم في التمثيل، وبالفعل قامت ببطولة فيلم سينمائي، ولكن الشاه تدخل لوقف عرضه فلم تكمل ثريا مسيرتها السينمائية.

في ديسمبر ١٩٥٩ أصبحت فرح ديبا الإمبراطورة الجديدة التي قال عنها الشاه: «علمت بمجرد أن تقابلنا أنها كانت المرأة التي كنت أنتظرها طوال حياتي، كما كانت الملكة التي كانت مملكتي في حاجةٍ لها»، وكانت فرح صغيرة في عمرها، كبيرة في ثقافتها وقوة شخصيتها، درست الهندسة المعمارية، وكانت تهوى الكتابة والصحافة. وقررت ألا تكون مجرد زوجة في القصر بل تكون شريكة في الحكم.

أنجبت فرح ولدين وبنتين (رضا وعلي، فرحناز وليلى) فنمت جذورها في البلاط وثبتت أقدامها. في الستينيات كان الازدهار الاقتصادي في إيران غير مسبوق فيما عرف بالثورة البيضاء.. نظام إصلاحي وضعته الحكومة إلا أن ثماره كانت لا تصل لأفواه المواطنين، وكانت هيمنة الغرب وولاء الشاه لأمريكا يثير استفزاز الشعب الذي لم يرتَضِ الاتجاه العلماني الذي اتخذه الشاه.

كُممت أفواه المعارضة ونشط السافاك (البوليس السري)، وازداد القمع، وحاول النظام حماية نفسه قبل أي أحد، والتفت المعارضة حول آية الله روح الله الخميني وهو رجل دين مسلم كان في المنفى.

شهد عام ١٩٧٨ الكثير من الاضطرابات في الشارع الإيراني، واجه النظام بعضها بإطلاق الرصاص الحي على المتظاهرين، فولَّد العنف مزيدًا من العنف، إلى أن أُجبر الشاه وأسرته على المغادرة في عام ١٩٧٩، ونجحت الثورة الإسلامية في إيران وانتهى حكم الشاه وعائلته إلى الأبد.

تنقل الشاه وعائلته بين عدة دول لم ترحب كثيرًا ببقائه. سافر إلى المغرب، جزر الباهاما وإلى أمريكا للعلاج من مرض سرطان

الغدد الليمفاوية، ولكن سرعان ما غادرها بعد حادث احتجاز ٥٢ أمريكيًا في السفارة الأمريكية بعد اقتحام طلبة إيرانيين مطالبين بتسليم الشاه مقابل الإفراج عن الرهائن.

في مارس ١٩٨٠ منح الرئيس المصري أنور السادات الشاه وأسرته حق اللجوء السياسي، الموقف الذي جلب على السادات الغضب وكان من أحد مسببات اغتياله، لكنه أعلن أنه لن يتخلَّ عن شاه إيران الذي لم يتأخر عن مساندة مصر في حرب أكتوبر ١٩٧٣ ودعمها بالنفط.

توفرت الحياة الكريمة للشاه وعائلته في مصر، وتلقَّى العلاج باهتمامٍ بالغ إلى أن توفي في يوليو من نفس العام، وأقام له الرئيس السادات جنازةً عسكرية.

بعد وفاة السادات غادرت فرح مصر، وتنقلت بين أمريكا وفرنسا. ولكن الأحزان عرفت طريقها إلى الشاهبانو بعد صدمتها بخبر انتحار ابنتها ليلى.

وبعد ذلك الحادث بعشر سنوات انتحر أيضًا ابنها علي.

رغم كل الأحداث الحزينة ما زالت الشهبانو فرح ديبا قوية ومبتسمة، وما زالت تزور قبر زوجها الشاه في مصر بصحبة السيدة جيهان السادات، وما زالت تستمتع بإجراء الأحاديث في الصحف والمجلات عن ذكرياتها الحلوة والمرة، وتنعم بصحبة أحفادها ومن تبقوا من عائلتها، وما زالت رمزًا للجمال والأناقة والقوة.

وحين سُئلت الشهبانو عما تستعين به وتستمد منه قوتها وطاقتها في الحياة قالت أنها تسأل الله دومًا قائلة: «اللهم امنحني السكينة لأتقبل الأشياء التي لا أستطيع تغييرها،

والشجاعة لتغيير الأشياء التي أستطيع تغييرها، والحكمة لمعرفة الفرق بينهما»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عرابي

هوجة أم ثورة

بعد أكثر من عشرين عامًا على متن سفينة متجهة إلى وطنه، كُتبت له العودة من جديد، وكان الشيب قد اشتعل في الروح قبل الجسد، وتغير كل شيء؛ المكان الذي تركه والمكان العائد إليه.

وفكّر.. حين تصافح السفينة اليابسة، ويُكتب له لقاء وطنه من جديد ماذا سيقول له؟ هل سيحكي له عن سنوات الضياع في منفاه؟ هل سيبرر، أم يدافع، أم ينكر عن نفسه التهمة التي ألقاها الجميع على كتفيه، أم سيدس الشجرة التي اقتلعها من منفاه في تراب بلده؟ وهو ما زال مؤمنًا أن الأرض ولادة، وأن الأمل الذي سُرق منه لا بُدَّ وأن يعود.

قرر أن يترك النبتة لتكبر وتحكي حكايته للمستقبل. ربما حين يتذوق الأبناء حلاوتها ترق قلوبهم ويرأفون لحاله ويبحثون في الماضي وأوراقه فيثبتون براءته.

(زُرعت شجرة المانجو في مصر التي جاء بها عرابي باشا من سيلان).

من كتاب التاريخ المدرسي عرفنا عرابي، عرابي البطل الثائر الذي وقف أمام الخديوي توفيق وصاح به من أعلى حصانه قائلًا: (لقد ولدتنا أمهاتنا أحرارًا ولم نُخلق تراثًا أو عقارًا، وأقسم أننا أبناء مصر لن نورث ولن نستعبد بعد اليوم).

بعيدًا عن الجدل الدائر الآن حول صحة ذلك المشهد ومصداقية الرواية التي حكاها عرابي بنفسه في مذكراته التي كتبها

بعد عودته من المنفى، فالجدل على عرابي وثورته أكبر وأعمق بكثير من ذلك المشهد، فلمَ لا نتجاوزه وننظر للمشاهد الأكثر تأثيرًا؟

مشهد ١ (عرابي - سعيد):

أحمد عرابي الفلاح الشرقاوي ابن شيخ البلد الذي انضم للجيش المصري بعد أوامر والي مصر سعيد باشا بالسماح لأبناء العمد والمشايخ بدخول الجيش، وانتمى إليه كنفرٍ بسيط. وضع عادي وطبيعي لمن لم يتخرج من المدارس العسكرية.

في ست سنوات فقط ترقَّى من نفر لرتبة قائم مقام، وصعد عرابي السُلَّم بجهده وكفاءته، وساعده أيضًا المناخ الذي وفره سعيد باشا لينال المصريون حقوقهم داخل الجيش الذي كان في ذلك الوقت مرتعًا للنفوذ الأجنبي من شراكسة ومماليك وتُرك، بل وكانت لهم الأولوية والتفوق على المصريين!

وكان عرابي مقربًا من سعيد باشا وقد سافر معه من ضمن حرسه للمدينة المنورة، وأعجب بخطابات سعيد باشا التي تغازل المصريين البسطاء وترفض التمييز لصالح الأجانب، فتشبع عرابي بشعارٍ ظهر آنذاك (مصر للمصريين)، ولكن بعد وفاة سعيد باشا وتولي الخديوي إسماعيل تغيرت الأوضاع!

كان الخديوي إسماعيل من الشخصيات المحيرة التي تقف عاجزًا إن حاولت الحكم عليها باختصار (كان له ما له وعليه ما عليه)، فله أعمال عظيمة، وله إخفاقات لا تغتفر، والتدخل الأجنبي الشنيع في شئون مصر والديون التي أثقلت عاتق الدولة هما أسوء ما جلبه حكم إسماعيل لمصر، فقد عُين مراقبين ماليين من قبل إنجلترا وفرنسا لمراقبة الأوضاع والتدخل في

شئون مصر بحجة متابعة الديون وكيفية سدادها، وشارك وزراء من أوروبا داخل الوزارة المصرية وصندوق الدين.

وفي تلك الفترة كل ما حققه عرابي من إنجازات وترقيات سابقة جُمدت، وأصبح كمن يدفع بعربة معطلة فينهك جهدًا دون التحرك قيد أنملة.

زاد النفوذ الأجنبي في الجيش واضطهد الضباط المصريين، فثار عرابي الذي اتسم بشخصيةٍ يمكن وصفها بأنها صدامية، فاصطدم مع ناظر الجهادية الذي طلب منه الموافقة على ترقية أحد أتباعه الأجانب على حساب أحد القادة المصريين؛ رفض عرابي أن يوقع القرار فوضع اسم أحمد عرابي على قائمتهم السوداء وكادوا له المكائد حتى توقف عن العمل وفُصل من الخدمة.

ذاق عرابي مرارة الظلم ثلاث سنوات، كان يحاول فيها العودة للخدمة بأي شكل، فقام بتقديم تظلمات والتماسات ولكن أبى الحق العودة لأصحابه.

(المشهد الثاني):

تم خلع الخديوي إسماعيل بأمر من الباب العالي ومباركة من القوى الأجنبية وتولَّى ابنه توفيق.

توفيق كان شابًا في الثامنة والعشرين من عمره، مسيطرًا.. مهتزًا وخائفًا؛ خائفًا من مصير والده ومن والده نفسه، الذي قد يزعزع عرشه ويعود للحكم. أراد تحصين نفسه وتثبيت عرشه، فعلى من يستند؛ الباب العالي، الأجانب، أم الشعب؟!

فرح الشعب بتولي الخديوي توفيق وتفاءل به وحاول توفيق زيادة طمأنته، فاتخذ عدة قرارات نالت الاستحسان، فمثلًا:

تنازل عن نصف المخصصات الملكية الممنوحة له وأسرته مراعاة للديون الطائلة التي تراكمت على الدولة المصرية. والقصور الخديوية التي بُنيت في عهد إسماعيل تقرر استغلالها لصالح مصر، وأتى بواحد من الشخصيات السياسية الحكيمة المحبوبة وهو شريف باشا ليتولى تأليف الوزارة رغم عدم اتفاق سياستيهما؛ فتوفيق يؤمن بضرورة تحكمه في كل شيء وأن تكون كل مفاتيح السلطة في جيبه، أما شريف باشا فيؤمن بالحكم الدستوري ومجلس النواب ويعتبر شريف باشا هو مؤسس النظام الدستوري في مصر.

شكل شريف باشا الوزارة وأسس للنظام الدستوري وقدمه للخديوي، وبعد صدور الفرمان الرسمي بتولي توفيق عرش مصر رسميًّا قرر عزل شريف باشا وتولَّى هو بنفسه رئاسة الوزارة.

مع صدور الفرمان كانت هناك أوامر أخرى على الخديوي توفيق تنفيذها، ولم يكن يملك حق الرفض!

منها مثلًا ألا يسمح له بإقامة معاهدة مع أيةِ دولة من نفسه، ولا أن يستدين من أيةِ دولة قبل الرجوع للباب العالي، وأن يكون عدد أفراد الجيش المصري ١٨ألفًا فقط، وتدفع الجزية في ميعادها للباب العالي.

كان عرابي في ذلك الوقت يعقد قرانه على ابنة مربية زوجة الخديوي توفيق وأختها في الرضاعة. وينتظر نتيجة طلب توسط زوجته عند أختها لعودة زوجها المظلوم للخدمة في الجيش المصري، وبالفعل عاد عرابي للخدمة وللمشهد السياسي بقوة.

أصبح النفوذ الأجنبي داخل الجيش هو المسيطر، وبتولي رياض باشا الوزارة يفتح الباب لمزيدٍ من التدخل والنفوذ الأجنبي.

وكان لرياض باشا نفس قناعات الخديوي توفيق وتجمعهم نغمة واحدة (السلطة المطلقة).

(المشهد الثالث):

سأم ضباط الجيش المصري من ظلم وتسلط قادتهم وتفضيل الضابط الأجنبي على المصري، تمنوا لو يجدوا القائد الذي يلتفون حوله ويكون صوتًا للحق ولمطالبهم المشروعة. فوقع الاختيار على عرابي الذي قبل بالدور على الفور مطالبًا إياهم بالولاء والشجاعة.

ذهب عرابي مع آخرين من قادة الجيش المساندين له لمقابلة ناظر الحربية، وقاموا بتقديم قائمة بمطالبهم، أرادوا منه عرضها على رياض باشا. مجموعة مطالب خاصة بحل مشاكل الجيش المصري الذي عانى من نقص عدده حتى أقل من ١٨ألفًا. الرقم المحدد في فرمان الباب العالي، وإحالة عدد كبير منهم للاستيداع، وبالطبع الحد من نفوذ الأجانب.

تخوف منهم ناظر الجهادية ورئيس الوزراء، وخافوا من الفرقة في صفوف الجيش ومن تمردهم على قادتهم، فصدر القرار بالترصد لهم والتخلص منهم.

وبالفعل تم استدراجهم للقبض عليهم بهدوء في مقر النظارة في عابدين بحجة الاجتماع من أجل ترتيبات فرح أخت الخديوي، ولكن أنوفهم قد اشتمت رائحة المؤامرة فقرروا الاتفاق مع الضباط بتتبعهم وإنقاذهم. وذلك هو ما حدث.

اقتحم الضباط مقر احتجاز قادتهم، وقاموا بحصار قصر الخديوي في عابدين. فزع الخديوي من حركة الضباط التي قد تؤدي للانقلاب عليه، وكان المندوب السامي البريطاني وكذلك

الفرنسي حاضرين معه، ووصلهما العلم بحركة عرابي الثورية التي تحدث في الجيش.

وفي المشهد الحقيقي قابل عرابي مندوبًا عن الخديوي وقال له مطالبهم، وفي نفس الوقت أكد ولاء الجيش للخديوي. أمَّا عن الرواية التي تدعي وقوف عرابي أمام الخديوي وقوله الشهير فمن قاموا بنفيها أكثر ممن قاموا بتأكيدها بكثير، رغم أن عرابي ذكرها في مذكراته ولكن قد نتفهم دوافعه للمبالغة في وصف ذلك المشهد.

قرر الخديوي توفيق الموافقة على طلبات الضباط لاحتواء الأزمة، وقام بتغيير وزارة رياض وعادت وزارة شريف باشا مرة أخرى. ومنح الجيش بعض الامتيازات، واجتمع الخديوي بالقادة في مأدبة فخمة للصلح وتأكيد الولاء، ونجحت حركة عرابي في تحقيق مطالبها.

(المشهد الرابع):

تقترب الكاميرا من شريف باشا وهو جالس على مقعده الفخيم في ارتياح وهو يداعب شاربه ويشعر أخيرًا أنه يحقق أحلامه.

انتخابات مجلس النواب والاستعداد للدستور، ولكن لم تكتمل سعادته، وتلك المرة لم يقف الخديوي حائلًا بينه وبين رؤيته لمصر، بل عرابي وأتباعه الذين ذاع صيتهم وقوت شوكتهم وتدخلوا في السياسة لدرجة أنهم أرادوا فرض محمود سامي البارودي وزيرًا للحربية!

ولم يكن شريف باشا راضيًا عن ذلك الاختيار، فكان ما يزال يذكر له أنه نكث بوعده وتحالفه معه في الوزارة الأولى، فقد تعاهدا

على تقديم الاستقالة في حين رفض الخديوي تنفيذ النظام الدستوري في مصر، ولكن لم يفعل البارودي!

والبارودي كان من أصل شركسي، لكن لا خلاف على وطنيته، وكان من أهم داعمي عرابي وثورته.. إنه الضابط والشاعر.. رب السيف والقلم.

وفي زاوية أخرى.. الجانب الإنجليزي الفرنسي يراقب الأوضاع في مصر، وتحديدًا بريطانيا المصرة على السيطرة على مصر وعلى قناة السويس، ووجود الدستور ومجلس النواب يتعارض مع مصلحة بريطانيا التي تحكم سيطرتها على الخديوي، فكيف تسمح بخروج السلطة من يد الخديوي؟

وفي زاوية أخرى.. عرابي وقادة الجيش، يتشاورون بقلق في شأن شريف باشا ذلك الرجل الغير منتمي للمؤسسة العسكرية، وترى لأي هوى يميل.. لهم؟ للخديوي؟ للأجانب؟ أما عن الشعب فكان يضع أمله وثقته في عرابي وأتباعه.

(المشهد الخامس):

بدأ مجلس النواب أولى جلساته بعد أن ضمَّ أعيان وكبار الوطن في أجواءٍ من الفرح، حتى حان وقت كتابة الدستور وبند الميزانية!

ثار الفريق الأجنبي ورفض أن تُقرر الميزانية من قبل مجلس النواب دون تدخل من المراقبين الأجانب.

كان شريف باشا رجلًا سياسيًّا محنكًا، رأى أنّ الخروج من ذلك المأزق يكون بتأجيل مناقشة بند الميزانية، وأن تحقيق القدر الأكبر من الاستقرار في شئون البلاد هو الأولى. وأن الصدام مع الإنجليز سيفتح أبواب جهنم، وذلك لم يكن الوقت المناسب.

لم يُبد الخديوي اعتراضًا على ذلك الرأي، لكن عرابي والجيش وأعضاء مجلس النواب رفضوا، ورأوا أن شريف باشا يتماشى مع الأجانب ويستجيب لنفوذهم.

وازداد الغضب والحنق على شريف باشا الذي سن قانونًا يمنع الترقي للجنود الغير متخرجين من المدرسة العسكرية في الجيش، وأن ينهوا مدة خدمتهم ويتركوا الخدمة على شرط بقائهم لفترة على ذمة الاستدعاء. وهذا عكس ما حدث مع عرابي، فعرابي كبر وترقَّى وبقي في الجيش وهو لم يتخرج من المدرسة العسكرية، لذلك عارض ذلك القانون بشدة، واتخذ موقفًا معاديًا من شريف باشا.

ولما زاد الغضب ضد شريف باشا قرر تقديم استقالته كي يعفي نفسه والخديوي من غضب العرابيين.

وأخيرًا استطاعت بريطانيا إيجاد ثغرة.. الأوضاع غير مستقرة في البلاد، إذًا الخديوي في خطر، وهناك ثورة تلوح في الأفق. فأرسلت بريطانيا وفرنسا أساطيلهم التي قبعت أمام ميناء الإسكندرية مدعية أنها ترابط هناك بدافع حماية رعاياها ومصالحهم في ظل هذا الاضطراب.

(المشهد السادس):

رغم استقرار الأوضاع وإجابة الخديوي لمطالب العرابين، فالبارودي أصبح رئيسًا للوزراء، وعرابي وزيرًا للحربية، إلا أنّ النبض العام كان يستشعر قدوم العدوان الأجنبي. وفعلًا طالبت إنجلترا وفرنسا بعزل البارودي ونفي عرابي خارج القطر المصري كي تستقر سلطة الخديوي. ولكن رفض عرابي المطالب ورأى

العرابيون أن بريطانيا وفرنسا لن تَقْوَ إلا على التهديد والتخويف وأنهم لا يستطيعون الترجل من سفنهم.

ولكن استقال البارودي وتشكلت وزارة راغب باشا الذي كان يتفق مع الخديوي في ميوله (السلطة المطلقة)، واستقرت الأحوال بشكلٍ كبير، لكن النار كانت تسري تحت الرماد. وجود الأسطول الأجنبي كان ينذر بالحرب ويقوي شوكة الأجانب وقد استعدوا لحالة الحرب مسبقًا، ومنهم من بدأ في حمل السلاح وتكوين جبهات لمواجهة الأهالي في حالة بدء الحرب. واستمرت بريطانيا في المؤامرات ومحاولات الاحتكاك كي تجد أيةَ زريعة تبدأ بها الضرب، إلى أن حدثت مذبحة الإسكندرية يونيو ١٨٨٢.

(المشهد السابع):

مواطن مصري أجر حمارًا لمواطن مالطي من رعايا الإنجليز، وعندما عاد المالطي بالحمار رفض الدفع للمصري ودار جدال أدَّى لنزاعٍ أفضى لجريمةٍ مروعة، فقد قتل المالطي المواطن المصري طعنًا وهرب ليختبئ في بيوت الأجانب الذين بدأوا بضرب النار على من طاردوا المالطي القاتل من الأهالي المصريين. وانفجر الأهالي في الشارع يقومون بضرب أو قتل من يواجههم من رعايا الأجانب، فحدثت مجزرة. مات عدد كبير وحُملت المسؤولية لعرابي ورجاله المقصرين في حفظ الأمن.

في حين أن اللوم يقع في الحادثة على الأجانب، فحالة الشحن والاحتقان التي حدثت هي من دفعت بأناس عاديين لحمل السلاح وإطلاق النار على بعضهم البعض في أول نزاع.

أجريت محاكمة وقُدم المتهمين لنيل عقوبتهم، وانضبط الأمن في الشوارع. ولكن بريطانيا عادت مرة أخرى تفتح أبواب النزاع

بسبب إصلاحات في الحصون الموجودة على الشواطئ واعتبروا ذلك استعدادًا للحرب.

أكد رئيس الوزراء أنها إصلاحات عادية، لكن بريطانيا صممت وأرسلت مطالبها وهي إنزال المدافع من على القلاع.

رفض عرابي المطالب ورأى أنه من المستحيل إنزال المدافع وترك الحدود بلا دفاع، واجتمع مجلس الأمة ومعهم الخديوي لاتخاذ قرار، وقد توعدت بريطانيا بشكلٍ نهائي الضرب في اليوم التالي إن لم تسلم المدافع.

لم تشارك فرنسا بريطانيا في موقفها وتراجعت بأسطولها عند بورسعيد، واختلفت الآراء في الجانب المصري، فالبعض أيَّد قرار التسليم معللًا بضعف المدافع وعدم جدواها، والبعض أكد على أهميتها وعلى مقدرة القوات على صد الهجوم. ووصلت المفاوضات لتسليم ثلاثة مدافع، وأُرسل للإنجليز الاقتراح ولكنهم رفضوا التنازل عن إنزال جميع المدافع، وأعلنوا أنه قد سبق السيف العذل وقُضي الأمر، فقد تقرر بدء الضرب صباح الغد.

فأصبحت المناقشات تدور في الجانب المصري على تكتيك المواجهة.

أما عن الأهالي فمن استطاع منهم النزوح لداخل البلاد فعل ذلك، وهرب من استطاع من الأجانب، وتُركت مصر وحدها في تلك الليلة تنتظر المصير المشؤوم في الصباح.

(المشهد الثامن):

بدأ الضرب على الإسكندرية من الساعة ٧ صباحًا حتى الحادية عشر ظهرًا، وتوقف الضرب ثم استكمل في الساعة الثانية. كان

الضرب على القلاع وفي العمق. وسرعان ما سقطت وانهارت المدافع، ورغم استبسال الجنود إلا أن الجهود ضاعت سُدى نتيجة للمعدات البدائية في مواجهة أقوى أسطول في العالم! فدمرت المدينة وسقط القتلى والجرحى بالآلاف، فكانت تنقلهم عربات الكارو على ألواحٍ من الخشب، وكانت دماؤهم تسيل في الشوارع.

هُجر آلاف الأهالي من الإسكندرية، وعروس البحر المتوسط اتشحت بالسواد، وعرابي وجماعته في حالة من الصدمة، وحاولوا إخفاء الحقيقة وإذاعة أخبار النصر الزائفة في الصحف، ولكن سرعان ما عُرفت الحقيقة، والخديوي كما قيل لم يكن في غاية الحزن، فقد أراد كسر شوكة عرابي وأعوانه، وكان سعيدًا لانتصار الإنجليز.

أما عرابي فقد رفض التسليم وانسحب هو والجيش لكفر الدوار لتحضير أنفسهم لمواجهة الإنجليز في الموقعة التالية، وفكر عرابي أن السفن الإنجليزية من المؤكد لم تكن مستعدة بما يكفيهم من جنود المشاة للحرب، لذلك قرر المضي قدمًا حتى يحقق النصر.

أمّا رأي الخديوي ورئيس الوزراء استقر على رفع راية الاستسلام وإعلان عرابي وأعوانه خارجين عن طاعة الخديوي.

(المشهد التاسع) حريق الإسكندرية:

قبل نزول الإنجليز ودخولهم الإسكندرية حدث حريق هائل، اتُهم عرابي أنه هو من أصدر أوامره بحرق المدينة ليقوم بتعطيل الإنجليز عن ملاحقته، ولكن بعد ذلك تكشفت الحقائق وعُرف أن الذي أمر بحرق المدينة القائم مقام سليمان سامي داوود من

دون الرجوع لعرابي، واستغل الأجانب الحدث وحرقوا بيوتهم ومحلاتهم ليستطيعوا المطالبة بالتعويضات بعد الحرب.

(المشهد العاشر):

عاد الخديوي للإسكندرية في قصر رأس التين وسط تشريفة من الضباط الإنجليز في مشهدٍ واضح لميل الخديوي للمحتل! مشهد مخزٍ جلب عليه غضب المصريين. وأعلن عرابي وأعوانه وما أكثرهم من مشايخ وأعيان قساوسة وشيوخ أزهريين ويهود.. كل الطوائف هتفت بالدفاع عن مصر ضد العدوان الإنجليزي، وأن الخديوي خائن قد انضم للإنجليز.

لكن بالطبع استطاع الإنجليز شراء بعض الأصدقاء حتى من داخل صفوف الجيش وتكاثرت الخيانات.. إلا أن الخيانة التي قضت على المقاومة العرابية (خيانة دليسبس).

الجميع أشاروا على عرابي بإغلاق قناة السويس حتى لا يدخل الإنجليز لعمق البلاد عن طريقها، لكن فرديناند ديلسبس أقنع عرابي أنه لن يستطيع أحد أن يقتحم القناة.

توالت الهزائم حتى هزم عرابي وجنوده الهزيمة الكبرى في التل الكبير، وللأسف قرر عرابي الاستسلام سريعًا، فسلم نفسه وكتب عريضة يلمتس فيها عفو الخديوي والصفح عنه خوفًا من عقوبة الإعدام.

ولذلك انقلب الموقف ضد عرابي وتمنى الكثيرون من كتاب التاريخ لو أنه اختار الموت في ساحة المعركة بشرف أو مواجهة المحاكمة بشرف. وتشكك الكثيرون في نية عرابي منذ البداية وتغيرت النظرة إليه من بطلٍ لمجرم خائن جلب الاستعمار الإنجليزي لمصر وفتح له الأبواب.

رفض البارودي تسليم نفسه وكذلك بعض شركاء عرابي، وسافر البارودي لمدينته وبيته منتظرًا قدوم جنود الخديوي والإنجليز للقبض عليه. وانطفأت نار الثورة وانتهى عام ١٨٨٢ بقدوم الاحتلال الإنجليزي لمصر.

النهاية:

تم التحفظ على عرابي وعلى سبعة من القادة وعلى كل من شارك معهم في الثورة كبيرًا وصغيرًا، فاكتظت السجون بأكثر من ٢٩ ألف متهم يواجهون أحكامًا ما بين الإعدام والسجن والنفي.

ومن الغرائب أن الإنجليز كانوا أكثر تعاطفًا مع عرابي وأعوانه وتدخلوا لحسن معاملته أثناء المحاكمة. وتم تعيين اثنين من المحامين الإنجليز للدفاع عنهم، في حين أن القضاة المصريين كانوا أكثر غضبًا عليهم، وأُصدر حكمًا بالإعدام على قادة الثورة العرابية، ثم خفف الخديوي الحكم للنفي مدى الحياة والتجريد من الأملاك والنياشين.

الوحيد الذي نفذ فيه الإعدام من القادة كان سليمان سامي داوود المسؤول عن حريق الإسكندرية، ونُفذ فيه الحكم علنًا، وبعض الضباط أيضًا من الرتب الصغيرة نالتهم أحكام جائرة مثل الملازم يوسف أبو دية الذي حوكم بسبب أحداث شغب وفتنة حدثت في طنطا، حيث هجم الأهالي على بعض الأجانب وقتلوهم وأخذ حكمًا بالإعدام، وللأسف نفذ الحكم ووصل عفو من الخديوي بعد تنفيذ الحكم بدقائق بعد أن ثبت عدم مسؤولية الملازم وأنه كان قد وصل للتو في نفس يوم الأحداث! فكانت فترة يسودها الظلم والمرارة والغضب.. غابت الحقيقة وتخبطت العقول!

وغادر عرابي ورفاقه السبعة لجزيرة سيلان في الهند من دون رتب أو نياشين أو أملاك، بعضهم اصطحب أهله وبعضهم سافر وحيدًا.

وفي سيلان أحسن الناس استقبالهم وعوملوا معاملة الأبطال. وعرابي أصبح اسمًا يعرفه العالم، فكان يزوره كبار الشخصيات، ولكن سرعان ما شحنت الأجواء بالغضب وانقلب الأصحاب على بعضهم البعض، وبدأ كل واحدٍ منهم في إلقاء اللوم على الآخر، فتفرق الأرباب الذين اتفقوا يومًا على الكفاح معًا.

كانوا يحلمون بالعودة لمصر، وعام وراء عام وهم يحاولون التوسل من أجل العودة.

قضى عرابي في منفاه تسعة عشر عامًا بعد أن كاتب كل من لديه سلطة تسمح بعودته حتى ملكة بريطانيا أرسل إليها التماسًا! وسبقه البارودي لمصر، الذي أصابه العمى وبعض رفاقه الذين سُمح لهم بالعودة لشدة مرضهم، والبعض الآخر عادوا جثثًا في توابيت، ومنهم من دفن في سيلان.

وفي النهاية عاد عرابي بعد مغازلته للإنجليز والثناء عليهم فتم العفو عنه. قرار آخر جلب عليه الغضب!

عاد عرابي وسط أصوات غاضبة تذم فيه وتحمله ذنب الاحتلال والبعض الآخر كان قد نسيه من الأساس.

وأفردت المقالات والكتب للكتابة ضد عرابي، فكتب أمير الشعراء أحمد شوقي هجاءً لاذعًا، وهاجم الإمام محمد عبده عرابي رغم أنه كان أحد المنضمين للثورة، فقال أن غرور عرابي وجهله وأطماعه الشخصية هي سبب الفشل.

كان عرابي يجلس على المقهى أو يسير في الشارع فيسمع سبابه بأذنيه، فأمسك بالقلم وألقى بذكرياته وشجونه عن الثورة على الورق ليكتب مذكراته وشهادته وظل منعزلًا حتى وفاته ١٩١١.

ظل عرابي محل سخط وغضب حتى ثورة يوليو، فقد اعتبره الضباط الأحرار أحد الأبطال الذين ظلموا فبدأت أحداث الثورة العرابية تُدرس في المناهج ويرفع من شأنها.

والآن يمكنك الحكم واتخاذ القرار والإجابة عن السؤال الذي طرح من زمن عن عرابي وثورته، يمكنك شيطنته أو تقديسه، وربما تظل عالقًا بين ذلك، وتظل للحقيقة أكثر من وجه!

والآن قد أنهيت رحلتي في حكايات الماضي، وأعترف أنني لم أجرؤ على الإبحار بعيدًا، وأنني لم أحلم بالوصول لدرر التاريخ الراكدة في الأعماق البعيدة في الزمان والمكان، وأنني فضلت الوقوف على الشاطئ لتداعب الأمواج قدمي وأن أستمتع ببداية رقيقة ناعمة.

وأنني حاولت فقط أن أفتح نافذة صغيرة ليدخل منها نور الشمس على عقولنا وخيالنا، وأمسكت بطرف الخيط ومضيت خلفه ألملمه وأظن أنه يمتد إلى ما لا نهاية.

وفي النهاية أقتبس من كلام الكاتب الكبير عباس محمود العقاد ما يعبر عما يخلد في ذهني:

«لست أهوى القراءة لأكتب، ولا أهوى القراءة لأزداد عمرًا في تقدير الحساب.. وإنما أهوى القراءة لأن عندي حياة واحدة في هذه الدنيا، وحياة واحدة لا تكفيني، ولا تحرك كل ما في ضميري من بواعث الحركة. والقراءة دون غيرها هي التي تعطيني أكثر من

حياة واحدة في مدى عمر الإنسان الواحد، لأنها تزيد هذه الحياة من ناحية العمق، وإن كانت لا تطيلها بمقادير الحساب.

فكرتك أنت فكرة واحدة.. شعورك أنت شعور واحد. خيالك أنت خيال فردٍ إذا قصرته عليك.. ولكنك إذا لاقيت بفكرتك فكرة أخرى، أو لاقيت بشعورك شعورًا آخر، أو لاقيت بخيالك خيال غيرك.. فليس قصارى الأمر أن الفكرة تصبح فكرتين، أو أن الشعور يصبح شعورين، أو أن الخيال يصبح خيالين.. كلا.. وإنما تصبح الفكرة بهذا التلاقي مئات من الفكر في القوة والعمق والامتداد».

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

إهداء..
سيدة ساحل الذهب
روز اليوسف
جوزيت أودان.. المُحاربة
حدث في قصر الأميرة عائشة فهمي
اللورد موين، الأمين عبد الله، وأبراهام شتيرن
ملك وكوكب
مدام توسو
حكايات على ساحل القناة
(إمبراطور إثيوبيا، المسيح الأسود، أرض الميعاد.. بوب مارلي والراستا وأشياء أخرى)
إمبراطور الشاي
الصعود إلى الهاوية
الآنسة مي
كو كلوكس كلان
حكاية في مدينة اللؤلؤ
عادل خيري وإيناس حقي
عائلة رومانوف
كثيرون حول مارلين مونرو..
بلقيس الراوي

جونز تاون
فرح
عرابي